

كلمة العدد: 20 سنة من الإصلاح والإنجاز

بقلم: عبد القادر الهاني

في السابع من هذا الشهر -شهر نوفمبر 2007- يكون قد مضى على الحدث الجلل حدث التغيير المبارك والمجيد عشرون عاماً، وهي فترة زمنية قصيرة في حياة الشعوب لكنها في تونس التحول وبكل المقاييس جبلى بالرؤى الحاملة والثاقبة مفعمة بالإنجازات الكبرى واللامتناهية، بما يجعل وصف تحول السابع من نوفمبر 1987 بالمبارك المجيد وصفاً دقيقاً وصادقاً، والوصف الأول هو من إطلاق العامة أما الوصف الثاني فهو من إطلاق الخاصة ولكلا الوصفين ما برّرها وأعطاهما من المصادقية ما من شأنه أن جعل من التغيير التحول المبارك ومجيداً حقاً وعلى صفة الدوام لأنه لم يفتأ ومع توالي هاتيك الأيام والشهور أن حقق لتونس المكاسب الكبيرة والإنجازات العظيمة التي تحقّق بها الخير العظيم والبركة الشاملة -وفي الآن ذاته- هي مكاسب وإنجازات أثّرت نهد أثيل ومنعة ظاهرة وكلاهما شمل كل الميادين وطال جميع القطاعات وبرزت النتائج في جميع الجهات مقنعة لأنها غيرت من حياة الناس إلى ما هو أفضل.

ففي الجانب السياسي قطعت تونس خطوات عملاقة -حقاً- على واجهة حقوق الإنسان الفردية والجماعية وفي باب الانخراط في

العمل السياسي المنظم ودلائل ذلك ظهرت جلية في بروز منظومة المجتمع المدني وتطورها ومساهماتها الفاعلة في مختلف نواحي حياة المجموعة الوطنية.

وفي الجانب الاقتصادي يا يسع المرء إلا أن ينوّه بالجهود الذي بذل في هذا المجال وأثاره واضحة في حياة الناس في المدن والقرى والأرياف.

وفي الجانب الاجتماعي تحقق للتونسيين وفي جميع القطاعات التعليم، الصحة، قطاع الطفولة، قطاع المرأة ما به يفخر كل تونسي وتونسية وما يباهيان به شعوباً ومجتمعات كثيرة بعضها قريب منا وبعضها بعيد عنا.

ولعلّه من المفيد أن نلقي نظرة خاطفة على الميدان الثقافي الذي يعرف الكل انه شهد عناية فائقة فتحقق له من المنجزات الهامة التي كان لها الأثر البالغ في تطوّر الحياة الثقافية ببلادنا وأعاد لها مجداً مؤثلاً كانت بثته من آلاف السنين.

إنها ملامح عامة ومختصرة لمسيرة تونس خلال عشرين سنة من التحول المجيد تعرضنا لها في هذه الكلمة، وليس من غرضنا أن نقول انه قد تحقق لكل شيء بل الغرض أن نقول: أن التمشي عاقل وقويم حقق الكثير وييسر بأنه الأقدر على تحقيق ما هو أكثر واشمل وأجدى.

مسيرة الفكر الإصلاحي بتونس من ابن أبي الضياف إلى بن علي

بقلم : الأستاذ عبد الرزاق الحمامي

تؤكد الدراسات المختصة في تاريخ الفكر السياسي أن نشأة التيارات الإصلاحية تنقيد إلى حد بعيد بلحظتها التاريخية فتكون معبرة عن ظروف موضوعية خاصة تفرض على الفكر والسياسي إبداء موقف منها وتحليلها وعرض تصورات ورؤى نابعة من ثقافته ومن منظومة القيم التي تشبع بها، والتعامل في رصيد الفكر الإصلاحي بتونس في القرن التاسع عشر إلى اليوم تستوقفه مجموعة من القيم المتواترة باستمرار توجه هذا الفكر وعمهده له أسباب النجاح لتحقيق أهدافه ومن أهمها الحرية والعدل والمساواة مع اعتماد العقل والاجتهاد آلية والرهان على الإنسان وحقوقه في سياق مزاجية حكيمة بين الماضي والحاضر والمستقبل.

إن وضوح الرؤية وحلّاء الهدف في مسيرة الفكر الإصلاحي التونسي جعلت كل مرحلة فيه تحقق ما تستطيعه من نجاح في ظل ظروفها الخاصة وتترك الأفاق مفتوحة لمن يأتي لاحقا ليواصل المسيرة نحو الأفضل والأرقى وهو ما يفسر أن نسق هذا الفكر ظل تصاعديا منذ نشأته يكسب في كل مرحلة شوطا من التقدم ويتمتع في كل حين بالإضافة مسائرا بذلك وعي المجتمع وتطور الإنسان باستمرار، كما يجذر من ناحية

أخرى فكرة التواصل والتكامل بين مختلف المراحل وما بلغته التجربة الإصلاحية بتونس منذ تغيير السابع من نوفمبر بدعم أن المد الإصلاحية بما عريق وأن ما يتحقق من إنجازات هو امتداد لتاريخ طويل وأن وراء هذه الإنجازات رجل سليل المدرسة الإصلاحية ومبادرتها منذ القرن التاسع عشر استوعب ما حققته وأضاف إليه لبنات ميّزت التجربة الإصلاحية التونسية من سائر التحارب المعاصرة لها.

إن تعلق مفكري الإصلاح في تونس منذ القرن التاسع عشر بالقيم الدستورية وما تفرضه من مبادئ مثل الحرية والعدالة تحيلنا على بعض أفكار أحمد ابن أبي الضياف 1874 - 1804 السياسية لأنها تعبر عن مدى إيمان الرجل بضرورة تغيير جوهر الحكم وآلياته بما يستجيب إلى قانون الشرع وقانون العقل في نفس الآن فبعد أن يعدّ مساوئ الحكم المطلق ومضاره يصل إلى هدفه، فالحكم المقيد بقانون هو مدار فكره الإصلاحي وجوهره وهو في نظره الحل الأمثل لعصره ولكل مشاكل المسلمين ودوهم عامة والإيالة التونسية خاصة فمن تلك المشاكل صلات الأطراف بمركز الدولة وكذلك إيجاد توازن بين السلطة المركزية ومختلف أصناف الرعايا فضلا عن توفير حكم عادل قوي.

لقد تحمّس ابن أبي الضياف لهذا النوع من الحكم لأنه يضمن قيمة العدل في الرعية ويجعل السلطة قوية بفضل القانون، وحرص على إقناع ملوك عصره بضرورة اتخاذ نظاما للحكم، فهو أمثل حل في نظره لإنجاز إصلاح سياسي متين لذلك يضرب الأمثلة بملوك البلاد الأجنبية الذين يمارسون هذا النوع من الحكم أو الملك على حدّ عبارته

أما حقوق القانون فهو أن يكون مرتباً مضبوطاً وفي ذلك ضمان للاستقرار والعدل وبذلك يبقى العمران بانتظام الأحوال. ولقد تعدى بالنقاش والنقد إلى تيار المتذرعين بالعلل الدينية والادعاء بأن الحكم المقيّد بقانون غير موافق للشرع أو أنه من البدع الناشئة عن محاكاة غير المسلمين من أهل أوروبا أكد عدم معارضة هذا النوع من الحكم للدين، بل ذهب إلى أنه في كثير من أحكامه موافق لما آتى به الشرع. وضرب أمثلة عديدة من التنظيمات وبرهن على مطابقتها للشرعية سواء بالنص أو بالمبدأ فالغاية منها تحقيق العدل وحفظ مصالح الجماعة والاحتياط لمظاهر الفساد وتنمية الاقتصاد وهي مبادئ مطابقة لمقاصد الشريعة الإسلامية.

لقد انتهى ابن أبي الضياف كما هو شأن خير الدين التونسي 1822 - 1889 وسائر معاصريه من النخبة الإصلاحية التونسية إلى ضرورة إدخال إصلاحات على السياسة الشرعية لما فيها من إمكانيات لتطوير الأحكام بما يناسب الظروف في ذلك العصر، فالتطور تجاوز ما كانت عليه الأمور من استقرار في فخر الإسلام أو صدره لذلك اكتسبت السياسة الشرعية ضمن هذا المنظور صبغة التطور بعد أن كانت أسيرة جمود خاضع لمفهوم العرف والتقاليد الاجتماعية المتحجرة أكثر من القانون. ولعل ما كان يعوز مفكري الإصلاح التونسيين وغيرهم في القرن التاسع عشر تلك الرؤية الشمولية للمجتمع فظل تناولهم بعض القضايا مشتتاً ولا يخضع لبنية متجانسة توف بين السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وسوف تأخذ هذه الرؤية الشمولية للإصلاح طريقها في تونس مع حكومة الاستقلال وتدعم لتبلغ أقصاها مع دولة التغيير. وقد

لا نلوم رواد الإصلاح كثيرا في ما اختاروه من توجه أو ما مارسوه من آليات، فذاك يعود بالأساس إلى طبيعة ثقافتهم ونوعية المعارف التي اكتسبوها، كما يعود أيضا إلى الثقافة التقليدية السائدة في أوساطهم، وكانت تقضي بأن بداية الإصلاح ومنتهاه هي السياسة ونظام الحكم والعلاقة بين الحاكم والرعية فعلى ضوءها تسود بقية القيم مثل العدل والحرية والمساواة ويتغير المجتمع ويزدهر الاقتصاد في ظل الاطمئنان والسلم والاستقرار. وفي هذا السياق يمكن فهم مشروع المصلح خير الدين التونسي، فقد كان الرجل واعيا بتقدم الغرب وتقهقر المسلمين لذلك دعا إلى ضرورة الإصلاح والتمدن بمحاكاة الغرب وتقليده والاقتباس عنه، ولم يتردد في الكشف عن أهداف مشروعه ومنها إغراء ذوي الغيرة والحزم من رجال السياسة والعلم بالتصالح ما يمكنهم من الوسائل الموصلة إلى تحسين حال الأمة الإسلامية وتنمية أسباب تمدنها (...). (وأساس جميع ذلك حسن الإرادة المتولد منه الأمن، المتولد منه الأمل، المتولد منه إتقان العمل المشاهد في الأمم الأوروبية بالعيان وليس بعده بيان. فلا إمكانية للتقدم في رأيه إلا الإمارة أي أن السياسة ركن مركزي ينشأ عنه التطور والتمدن وهو في نفس الآن سبب التخلف إذا كانت قهرية مطلقة، وقد جابه خير الدين بدوره القوى الدينية المحافظة في المجتمع وكانت تعارض سياسة التنظيمات التي سلكتها الخلافة العثمانية لأصلاح الأوضاع السياسية والاجتماعية وأكد ضرورة الاقتباس وفوائده ودافع عن آلية الاجتهاد وسيلة عقلية لسد الفجوة بين التصرف والواقع، ومنها لاستثمار مقاصد الشريعة الإسلامية وأبعادها الإنسانية

القائمة على مبادئ العدل والحرية المساواة، و لعل إدراك خير الدين لمثل هذه القضايا وارتباط ازدهار الاقتصاد وتطور المجتمع وتمدنه بالسياسة العادلة المؤسسة على دستور وحكم نيابي هو ما جعل الدارسين يجمعون على أن كتاب أقوم المسالك هو أول كتاب عربي في الفكر السياسي في العصر الحديث تأثر به كل المصلحين اللاحقين واقتبسوا من مبادئه وأفكاره، وقد مارس خير الدين العديد من الإصلاحات عند تولّيه الوزارة الكبرى من 1873 إلى 1877 مثل: تنظيم الوزارات والإدارات وتنظيم القضاء وتنظيم الفلاحة والتجارة والاقتصاد وتنظيم الأدعاء والأحباس والتعليم. ولا يكاد المصلح التونسي محمد بيرم الخامس 1840 - 1889 يختلف كثيرا في كتابه صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار عن سائر مفكري الإصلاح في اعتبار الأولوية للعامل السياسي ودوره في تأخير المسلمين، فهو قد اهتم في كتابه بالظاهرة السياسية في كل بلدان أوروبا التي زارها، وقد قسّم الحكم إلى استبدادي أو شوري، وانتصر للخطة الإصلاحية التي مارسها خير الدين فكرا وعملا وشعر كغيره من المصلحين بضرورة تأسيس هذه الدولة الشورية،

ومثلها في عصره جاهز، فيكفي النظر إلى ما أنجزه بيسمارك في ألمانيا. لكن كلّ هذه الإصلاحات المقترحة لتغيير نظام السياسة وتنعير الجيش ترتبط عند بيرم الخامس بمقدّمة لا بد منها، ولن ينجح أيّ برنامج إصلاحي سياسي اقتصادي إلّا بها وهي نشر التعليم وتحسينه. ويذهب بيرم الخامس إلى أنّ القوّة العسكرية ونشر التعليم واعتبار الأهالي مواطنين محترمين يؤدّون الخدمة العسكرية لمُدّة معيّنة ويدفعون الضرائب باقتناع

ووعى لا يكفي لإعادة العزة إلى الدولة الإسلامية بل الواجب الالتفاف حول الخلافة العثمانية للتصدي لأطماع الغرب، فهو أكد في عديد المناسبات ضرورة استمرار العلاقة بين الإيالة التونسية ومركز الخلافة. لقد أدركت نخبة الفكر الإصلاحي في تونس في القرن التاسع عشر أن جوهر التمدّن ونشر التقدّم يكمن في النظام السياسي العادل الذي يفرض الاستقرار والأمن ويشجّع على الإنتاج والتطوّر في كل المجالات العلمية والصناعية والزراعية وهو ما ينعكس إيجاباً على المجتمع.

وعلى اختلاف توجهات المصلحين وتنوع مصادر ثقافتهم فإنهم أعادوا النظر في قضايا جوهرية من شأنها صياغة مجتمع جديد يواكب التطوّر باستمرار وفق منهج تنويري يولي الاجتهاد وإعمال العقل قيمة قصوى ويشتر بقيم أصيلة تقوم على كاهلها كل حضارة عريقة، مثل العدل والحرية والمساواة، ومنها كانت نتائج الفكر الإصلاحي في هذه المرحلة، ومهما كانت أبعاده فإنه مهّد السبيل بما تطرّق إليه من قضايا وما سطره من منهج لجيل آخر من المصلحين سيواصلون المسيرة الإصلاحية ويكسبها كل واحد منهم طابعه الخاصّ بحكم ظروفه الإقليمية والعالمية وطبيعة القضايا المطروحة عليه في زمنه، وقد برز منهم على الخصوص كل من عبد العزيز الثعالبي (1844-1944) والحبيب بورقيبة (1901-2000) (وزين العابدين بن علي الذي أعاد الاعتبار إلى من تقدّمه من أجيال الفكر الإصلاحي وأضاف إلى أفكارهم وتصوّراتهم إضافات نوعية خاصة جمعت بين البعدين النظري والتطبيقي وأحاطت الفكرة بالقانون، متجاوزاً بذلك الوقوف عند الجزئيات إلى الغوص في الإصلاح

الشامل ذي الاتجاهات المتعددة وفي نفس الوقت لتدارك أقصى ما يمكن تداركه من فرص التقدّم ومواكبة العصر مع المحافظة الواعية على الهوية. « لقد كانت النخبة التونسية التقليدية قبل انتصاب الحماية الفرنسية على تونس 1881 (أحمد بن أبي الضياف وخير الدين باشا) وبعد هما (محمد السنوسي، محمد يرم الخامس، العربي زروق) قد استنفذت كل قواها وطاقتها في دفع العملية النهوضية والإصلاحية وفي بلورة وتعميق الصحوة الوطنية على الصعيد السياسي والاجتماعي وسوف تكون لحظة عبد العزيز الثعالبي المحطة التي سيتحذر فيها عمل الصحوة الوطنية وتشهد فيها تحولات هامة أفرزت تناقضات جديدة في صلب النخبة التونسية وفي صلب العمل النضالي الوطني.

وبصرف النظر عن النشاط السياسي للثعالبي وتأسيسه مع رفاقه الوطنيين الحزب الحر الدستوري سنة 1920 فإن للرجل رصيда فكريا عبّر عن مواقفه الإصلاحية ممّا عمّق الوعي الوطني ودفع العمل النضالي ضد الاستعمار، فكتاب « تونس الشهيدة، مطالبها » لخصّ مطالب جيل سعى إلى ردّ الاعتبار للوطن أولاً وفرض المساواة والعدل فيه تمهيدا للمطالبة بالحرية والاستقلال، ومبدأ التشهير بالاستعمار في عقر داره وجلب نظر المعارضين فيه للحكومة إلى عدالة القضية التونسية. منهج نضالي جديد توخاه الثعالبي وجيله وقد « أدى الكتاب دوره المنتظر »، إذ حارب الثعالبي وجيله الاستعمار منطلقا من أهم المبادئ الإنسانية والثورية للغرب حيث حاول الثعالبي أن يحاسب الوجود الاستعماري الفرنسي في تونس على ضوء مبادئ الجمهورية والثورة الفرنسية وعلى ضوء ما

جاء من مقدمات وتبريرات الحماية سنة 1881 وهكذا فإن كتاب تونس الشهيدة لخصّ التوجّهات الإصلاحية التي بلغتها النخبة السياسية التونسية في الربع الأول من القرن العشرين وكانت ذات طابع شمولي إذ تناولت السياسة والاقتصاد والاجتماع وجذّرت مفهوم الهوية الوطنية فكان تعامل الثعالبي مع الإسلام متميّزا برؤية عقلية ناضجة أثارت ضده علماء الزيتونة وسوف نجد ضالها في مسيرة الفكر الإصلاحي لاحقا.

ولعل كتابه روح التحرر في القرآن خير معبر عنها إذ تضمّن الكثير من الأفكار الإصلاحية التي كانت رائجة في ذلك العصر ولاسيما المتعلقة منها بتحرير المرأة المسلمة ومقاومة البدع والتمسك بالكتاب والسنة، و المبدأ الإصلاحي العام عنده في مجال الدين هو الرجوع إلى المنابع والاعتبار بالمقاصد ورفض ما علق بالإسلام من زيادات وتراكبات وبدع. وقد كان شديدًا في نقد العقول المتخفّرة، داعيًا إلى نظرة حديثة تسعى إلى بلورة « فكر سياسي واجتماعي وديني تحرري والطموح إلى جعل ذلك الفكر التحرري قاعدة للنظريات التي تقود العمل النضالي ضد السيطرة الاستعمارية على البلاد » إلى جانب ربط الجهد النظري بالممارسة السياسية الوطنية، وربط ذلك الجهاد المزدوج الأبعاد بما سبقه من عمل إصلاحي في تونس (تجربة خير الدين باشا) وفي الوطن العربي (تجربة محمد علي بمصر).

ومهما كان الخلاف وحجمه بين الثعالبي وبورقيبة في العمل السياسي وطريقة هيكلية الحزب وآليات النضال ضد الاستعمار فإن لكلّ من الرجلين منزعًا إصلاحيًا ساهم به في دفع مسيرة الفكر الإصلاحي

التونسي، ولئن أُنجزت عديد الدراسات التاريخية والسياسة لتسجيل إصلاحات بورقية ونشأة الدولة الحديثة بتونس فإنه يمكن تلخيصها في اتجاهات واضحة تقوم على ضرورة توخّي المراحل في أي إنجاز إصلاحي، اعتماد العقل و الاجتهاد لتحقيق التقدم والتطور واللاحاق بركب الأمم المتقدمة، وقد كان للتشبع العميق بأطروحات المفكرين الفرنسيين الممهدين للثورة الفرنسية أثره في وجدان بورقية كما كان معجبا بالتجربة العمالية في تركيا ونجاح كمال أتاتورك في الفصل بين السلطتين الدينية والسياسية، ومهما كانت جرأة الإصلاحات التي قادها فإنها لم تنتكّر لجوهر الدين الإسلامي ومقاصده : إذ كان هدفه وضع حدّ للفهم الحرفي للنص ومحاولة تفهّمه على ضوء نظرة تطويرية تحافظ على مصالح الإنسان ولا تتعارض مع المعنى الحقيقي للنص.

لقد قاد بورقية في بداية الاستقلال إصلاحا مزدوجا استهدف الهياكل السياسية والاقتصادية وبنية المجتمع في نفس الوقت فكان إعلان الدستور وتركيز الحكم النيابي، وكان توحيد القضاء وتوحيد التعليم وحلّ الأحباس، وهي إجراءات غيرت علاقة العائلة بواقعها التقليدي وسارت بها وبالمجتمع عموما على درب التنمية والحدّاءة، فتجاوز المجتمع منظومة القبيلة إلى العائلة النواة وتغيرت أنماط السلوك فتحققت المساواة بين المرأة والرجل بفضل مجلة الأحوال الشخصية، ووجدت مبادئ الإصلاح التي نادى بها خير الدين والثعالبي طريقها إلى التطبيق على ضوء ما تمّ إقراره من قوانين شهدت التنقيح والتعديل بمقتضى تطوّر المجتمع وتقبله باستمرار لمواكبة العصر.

ولئن غلب التعجب على مواقف المحللين السياسيين في كيفية انتقال السلطة لحظة التغيير بكامل الهدوء ودون عنف فإن التعجب يزول أمام من يحسن قراءة تاريخ المدّ الإصلاحي بتونس ويغوص في أعماق أبعاده، ذلك أن بن علي سليل المدرسة الإصلاحية التونسية ومن مبادئها الإنسانية العامة، قاده روحه الوطنية إلى النجاح في قيادة التغيير ومواصلة العمل ولكن بنسق أسرع لتحقيق إصلاحات تطلبتها المرحلة فبادر بإصلاح ما طرأ على المسيرة من وهن ولذلك دعا إلى المصالحة الوطنية من خلال الميثاق الوطني وجعل المصالحة مع الهوية من أبرز الأولويات، والناظر فقط في بيان السابع من نوفمبر نظرة تحليلية يلاحظ المبادئ الإصلاحية التي أرساها التغيير في 1987 وتكتمل هذه الرؤية الإصلاحية النافذة بمتابعة صدى البيان في مفاصل البرنامج الانتخابي المشتمل على 15 نقطة، تكمل ما تم إنجازه من إصلاحات وما وقع التفكير في تطبيقه ضمن تصوّر استشرافي للمستقبل.

فبين بيان السابع من نوفمبر والبرنامج الانتخابي تكامل وتناغم بسبب صدورهما عن تصوّر شمولي لا يتعدى بالإصلاح لقطاع دون آخر، ولذلك يجوز لنا اعتبار المدّ الإصلاحي في ظل التغيير قد بلغ أقصى درجات نضجه منذ بدايات القرن، ففي حين أرقت المسألة السياسية مفكرّي الإصلاح في ذلك الحين نجد بن علي يتعامل معها تعامله مع المسألتين الاقتصادية والاجتماعية سواء بسواء، مع التركيز بالخصوص على توحّي المناهج العلمية في العمل السياسي والجمع بين النظرية والتطبيق بفضل ما للقانون من سلطة وسيادة.

لقد تركّز جوهر التغيير والإصلاح على الرهان على الإنسان أولاً وأخيراً في علاقته بذاته أو بمحيطه الإقليمي والعالمي، فتحققت على أرض الواقع مفاهيم الحرية والعدالة والمساواة، وتجاوزت التجربة الإصلاحية التونسية الإطار المحلي لتصبح مثالا تحتذى به الدول وتنبهه المنظمات الدولية (صندوق التضامن العالمي). ولم يكن ممكناً للإصلاح أن يواصل مسيرته ويتدارك بسرعة ما فات تونس تحقيقه لولا التمهيد له بتحقيق الأمن والسلام والاستقرار مما دفع الثقة في النفوس وكان مبدأً معاً من أجل تونس فائحة مرحلة جديدة في مجال الإصلاح، فما كان يدعو إليه خير الدين من أن تحقيق العدل يؤدي إلى الأمن وأن الأمن يؤدي إلى الازدهار وتحقيق التمدن، حققه بن علي بصورة واضحة، إذ بادر بدعوة كل القوى مهما اختلفت طبيعة تكوينها أو توجهاتها الإيديولوجية إلى التضامن من أجل مصلحة التونسيين جميعاً، ومع دعم التعددية وإشاعة ثقافة الديمقراطية وحقوق الإنسان وتركيز مجتمع القانون والمؤسسات، جعل للقانون حرمة وهبة لا تقبل المساومة أو المراجعة. ولعل المجال لا يتسع لعقد مقارنات دقيقة تحذر التجربة الإصلاحية منذ التغيير في النسق العام للفكر الإصلاحي بتونس وإن كانت بعض العلامات الكبرى دالة على مدى التواصل والتكامل بين مختلف مراحل هذا الفكر، الذي بدأ جنيئاً مع كتاب "أقوام المسالك لمعرفة أحوال الممالك" لخير الدين التونسي، وبلغ أقصى نضجه في مرحلة التغيير، ذلك أن ما تحقق من إصلاحات وفي جميع الميادين منذ 1987 وإلى الآن، لم يتحقق على امتداد قرن من الزمن، ومما يحتاج إلى مزيد التحليل أيضاً تغيير الأسباب الموضوعية التي جعلت تونس على امتداد التاريخ وباستمرار رائدة إصلاح، فمنذ 1861 ظهر بها أول دستور في البلاد العربية

في العصر الحديث، كما ظهر بها أول كتاب في الفكر السياسي الإصلاحي سنة 1867، وأبرز مجلة في مجال الأحوال الشخصية في العالم العربي والإسلامي على الإطلاق منذ 1956، ثم بيان السابع من نوفمبر سنة 1987 وما سطره من مبادئ إصلاحية وجدت في ما صدر من قوانين وما اتُخذ من مبادرات إصلاحية ذروة ما يمكن أن يحققه الفكر الإصلاحي، كيف لا وقد حافظ الإصلاح على مكاسب ثلاثين قرناً من الحضارة ودعّمها بدولة القانون والمؤسسات ودفع الحياة السياسية نحو التطور، ورسخ مقومات الشخصية الوطنية، فضلاً عن أبعاد الإصلاح الاقتصادي ومفهوم التنمية الشاملة والإحاطة بالثقافة وتحديث البنية الأساسية وحماية البيئة، ويظل الإنسان جوهر هذا الإصلاح وهو ما يفسر قيمة البعد الاجتماعي والإنساني في الفكر الإصلاحي لبن علي وقد مثل الشباب والطفولة والمرأة واعتنى عناية بالغة بالصحة وأشاع قيم التضامن بين مختلف طبقات الشعب ورفع مبدأ التعليم للجميع.

والخلاصة أنّ مسيرة الفكر الإصلاحي بتونس من ابن أبي الضياف إلى بن علي تواصلت في نسق تصاعدي لم يشهد قطيعة أو هزات، التحمت مراحلها وأفادت كلّ تجربة لاحقتها في ظل الوعي باستيعاب ما تقدم والإضافة إليه باستمرار ومواكبة ما يتحقّق في العالم من تطوّر وبذلك اتّسعت آفاق هذا الفكر ولم تعد تونس مجرد إبالة أو ولاية من ولايات الحكم العثماني، بل دولة مستقلة، ذات سيادة ولا تشيخ بوجهها عن نسق التطوّر الكوني، فإذا بها تتدرّج في ميثاق العولمة دون ذوبان في الآخر تحافظ على جذورها ولا تدين الآخر بل تتعاون معه على قدم المساواة وعلى أساس مبادئ الحرية والعدل والمساواة./

مترلة أوروبا في الإتحاف لابن أبي الضياف

بقلم : الأستاذ محمد بالطيب

ربما يبدو الحديث عن مترلة أوروبا في الإتحاف لبادئ الرأي وعاجل النظر غريبا، لأن الإتحاف في الأصل كتاب تاريخ لا صلة له بتاريخ أوروبا، وإنما هو متصل بتاريخ تونس، ولأن مؤلفه لا يعرف أي لغة من اللغات الأوروبية، ولم تكن له ثقافة حديثة تتيح له الاطلاع على منجزات الفكر الأوروبي بل كانت ثقافته في الأصل فقهية ومصادره الفكرية عتيقة تقليدية، ثم إنه لم يكن من الرحالة الذين أتاحت لهم رحلاتهم إلى أوروبا أن يحيطوا علما بمعالم تمدنها ومظاهرها، فقد كان ابن أبي الضياف موظفا ساميا في دولة البايات ملازما لمخدوميه، ولم يتح له السفر إلى أوروبا بل فرنسا على وجه التدقيق إلا مرة واحدة مرافقا للمشير أحمد باشا باي ولم تستمر تلك الزيارة غير بضعة أسابيع. ولكن رغم ثقافته التقليدية ومرجعياته السلفية، كان لأوروبا لا باعتبارها رقعة جغرافية وإنما باعتبارها حضارة إنسانية حضور لافت للانتباه في الإتحاف، جعل منها مرجعا للتفكير ودافعا إلى التغيير، وشاهدا على حتمية الاقتباس وضرورة الإصلاح، ومثلا في المدينة يحتذي وأتمودجا للترقي حريا بالافتداء من غير تعارض مع الاستئناس إلى ثوابت الإسلام وتراث السلف.

فماهي تجليات هذا الحضور الفكري الأوروبي المرجعي في الإتحاف؟ وماهي دلالاته؟ وقبل ذلك ماهي العوامل التي ساعدت ابن أبي الضياف على ان يسلك هذا المسلك الذي اتخذ من اوروبا سلطة مرجعية موجهة للتفكير باعثة على الإصلاح والتغيير؟

لقد استقى ابن أبي الضياف معلوماته عن الحضارة الأوروبية في عصره من مصدرين هما الخير والعيان. أما الخير فما اطلع عليه من الكتب التي وصفت مظاهر التمدن في أوروبا وأشهرها كتاب - تخليص الابريز في تلخيص باريز - لرفاعة الطهطاوي - 1973، فقد أحال عليه ونوه به وأثنى على الفصل الثالث من المقالة الثالثة حيث لخص الطهطاوي القانون الفرنسي - تلخيصا حسنا بديعا يشهد له بالانصاف وحدة الفكر - كما أحال على الكتاب نفسه عندما وصف رحلته قائلا: وقد أعطاها حقها الشيخ رفاعة الطهطاوي واجتمعت به فيها، وقد ذكر استفادته من كتاب مؤنس عربي من اللغة الفرنسية بعض فضلاء مصر ويعني رفاعة الطهطاوي واسماه - قلائد المفاهر في غريب عوائد الأوائل والأواخر - . أما الكتاب المرجع الذي منه اقتبس اهم أفكاره في الإصلاح السياسي وعمر عن منتهى إعجابه به فهو كتاب اقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك لصديقه خير الدين التونسي فقد قرضه بقوله : جمع فيه من فوائد السياسة ما تتجلى به الرئاسة، عرب أكثره من كتب فرنساوية على أسلوب ممتع غريب المنحى يشهد لصاحبه بالتقدم وقوة العارضة.

لقد اطلع صاحب الإتحاف على جوانب مهمة من معالم الحضارة الأوروبية بفضل صداقته لخير الدين الذي سافر إلى باريس أطلال المقام فيها من سنة 1853-1856 وكانت له صداقات مع أعيانها وتعلم لغة أهلها وتواتر سفره إليها فاتاح له ذلك اطلاعا واسعا على نظامها السياسي، وخبرة بشئ مناحي الحياة فيها، ومن ثمة فإن صداقة صاحب الإتحاف لصاحب أقوم المسالك أفادته علما بأوروبا وحضارتها وتفتتت بفضلها بصيرته واستنار فكرهن واغتنت ثقافته وتطورت خيرته واتسعت آفاق تفكيره فتميز من بين نظرائه من الشيوخ ذوي الثقافة الدينية التقليدية فكان أكثر تفتحت وتأثرا بتطور العالم.

ولكن ليس الخير كالعيان، فقد كانت زيارة ابن أبي الضياف إلى فرنسا، ومشاهداته لنجزاتها الحضارية ومعالمها العمرانية والعبر التي استخلصها من تدبر تلك المشاهدات، المنبع الثري الذي منه استقى ابن أبي الضياف قيم التمدن وسبل التحضر، ولعل تلك الزيارة كانت الأعمق أثرا في توجيه فكره الإصلاحية الوجهة التي أفصح عنها الإتحاف. فقد زار فرنسا صحبة المشير أحمد باشا باي من 5 نوفمبر 1846 إلى 31 ديسمبر 1846، وقد عرض تفاصيل تلك الرحلة في الجزء الرابع من الإتحاف. وكم كان معتزا بتلك الزيارة مغتبطا بتلك الرحلة وكم اتخذها مرجعا يخيل إليه، وشهادة بليغة تدعم افكاره وتسدد في الإصلاح مساره وحنة لا تقبل الدحض ودليلا لا يقبل النقض.

وهكذا غدت أوروبا من خلال ما اطلع عليه خيرا، وما شاهده عيانا

سلطة مرجعية قوية يستند إليه إقتناعا ويعتمد عليه احتجاجا واستدلالا. ولقد تجلت منزلة أوروبا في فكر ابن أبي الضياف من عميق تأثيرها في شتى مناحي تفكيره، ومحاور اهتمامه وسائر مشاغله فكانت أوروبا المتمدنة وحضارتها المتقدمة موجهة لتفكيره في شتى مجالات الإصلاح.

وسنكتفي في هذا المجال بالالمام إلى أثر المرجعية الأوروبية ففكرا وحضارة في الأفكار الإصلاحية المبثوثة في الإتحاف على سبيل التمثيل والتقريب لا على سبيل التوسع والاستقصاء ولتكن تحليلية منزلة أوروبا في تفكير ابن أبي الضياف من خلال تتبع بعض آثارها في المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعمرانية.

ففي المجال السياسي يبدو أثر الفكر السياسي الليبرالي الأوروبي جليا في انتصار ابن أبي الضياف للملك المقيد بالقانون وسعيه إلى الإقناع بضرورته والاستدلال بنجاعته وملاءمته لأحكام الشريعة ولأوضاع المجتمع فالسبيل إلى تحقيق النهضة وبناء الحضارة إلا على أساس متين من القانون العادل النافذ الناجز.

ولا شك في ان أوروبا هي المرجعية الأولى في هذا السياق ففيها تأسس النظام السياسي الذي بمقتضاه يقيد الملك بالقانون من خلال إقامة المجالس النيابية التشريعية التي تنهض بوظيفة الاحتساب على الدولة ومراقبة الحكومة ومحاسبتها، فذلك قوله - ومن فروع القانون عند أهله بأوروبا مجلس شورى من أعيان المملكة وعقلائها ينتخبه الأهليون ويختلف حال تركيبه وكيفية انتخابه وشروط المنتخب والمختب وعدد رجاله

باختلاف حالات البلدان وعاداتها وهذا المجلس هو الوكيل عن العامة ولذلك يكون بانتخابهم ليحمي حقوقهم الإنسانية بغير خروج عن الطاعة. وأعظم حقوقهم القانون الذي حصلوه بئذ لأرواحهم وهو القطب الذي عليه أمانهم في انفسهم بأموالهم وأعراضهم والأمر الذي يسلمه هذا المجلس يمضي على سائر العامة للزوم الموكل ما لزم الوكيل وبمقتضى هذا التوكيل ساع لهذا المجلس سؤال الوزراء ومعارضتهم... بل ربما يطلب هذا المجلس عزلهم إن ارتكبوا موجبة من مخالفة القانون لأن العهدة عليهم لا على الملك ولذلك يبقى جانب الملك على ما يجب له من التعظيم والاحترام والأدب - فمن الواضح إذن فائق إعجابه وانبهاره بهذا النظام السياسي الذي يقبض أيدي الملوك وأصحاب السلطان عن البغي والطغيان وحسبك هذا النظام سبيلا إلى الترقى والتمدن وناهيك بمحاسن آثاره في السياسة والاجتماع والاقتصاد.

وإذا كانت أوروبا في هذا المجال هي مرجعية التنظير فإنها أيضا مرجعية التطبيق، فما أكثر ما يستشهد على حسن تطبيق القوانين، وتقييد الملك بالقوانين بما شاهده في فرنسا أثناء زيارته مع الباي فيول متحدثا عن الافرنج - لذلك يأنفون من ظلم الملوك كما هو المشاهد بالأقطار الإفريقية وغيرها- ويقول: وقد رأينا مصداق ذلك بالمشاهدة

لما سافرنا لباريس مع المشير أبي العباس أحمد باي سنة 1262-1846
أما في المجال الاجتماعي فنكتفي بالإشارة إلى مظاهر التكافل الاجتماعي التي شاهدها في فرنسا عيانا، فقد أعجبه ما رأى في المجتمع

الفرنسي من خدمات صحية، وجمعيات خيرية تغيث الملهوف وتساعد الضعيف، لا من باب المبادرة الفردية، وإنما من طريق مؤسسات اجتماعية وجمعيات تضامنية جعلت من الجهد الجماعي أعمق أثرا وأعظم نفعا فقد زار صحبة الباي- مأوى العواجز وسواقط الحرب بباريس فسجل إعجابه بما شاهد من نظام الرعاية الاجتماعية مما يدل على مدى تكريم الذات البشرية واحترام الكرامة الإنسانية وفي ذلك يقول : - ووجد من لا قدرة له على القيام، كل واحد في سريره موكول به امرأة تناوله ما يشتهي وتزيل عنه ما يلزم زواله وهي حانية عليه حنو الوالدة على الفطيم وبه مارستان كبير لمن طعن في السن وعجز عن الخدمة تجري على الجميع جرايات واسعة ونفقات لها بال من أحسن ما يتفق الإنسان - ولا يكفي صاحب الإتحاف بمجرد ملاحظة الظاهرة وتسجيلها بل يتجاوز نطاق الرصد والتسجيل إلى التفسير والتعليل مما ينم عن فهم دقيق للظاهرة ووعي لمقاصدها وعلم بفوائدها مع تأصيل السلوك المشاهد في الشريعة وذلك في قوله: وهذا المحل مما يقوّي قلوب عساكرهم حين يرون مآل العاجز منهم وأنه لا يترك نسبيا منسيا وهذا الشأن هو شريعة الأعلام ومثل هؤلاء حق شرعي في بيت مال المسلمين- فكان اهل اوروبا في مثل هذه الخدمات الإنسانية عاملين بحكم الشريعة الإسلامية وغن لم يكونوا من أهلها بينما تخلو بلاد الاسلام من مثلها وذاك مدعاة إلى الأسف.

وإنك لتجد في حديثه عن الخدمات الإنسانية التي قام بها الوافدون

الأوروبيون إلى تونس إشادة بما أظهروه من رحمة وما بذلوه من جهود وأموال لرعاية مرضى الكوليرا سنة 1867 وتنويها بما قدموه من خدمات جليلة مما يدل على شدة إعجابه وتقديره لهذا التمشي الإنساني الذي سما على الاختلافات العرقية والدينية، وبذل المساعدة لمن هو في حاجة غليها من دون اعتبار لجنسه أو لونه أو دينه أو وطنه، فقال: في هذه الشدة ظهر من تجار الإفرنج وأتباعهم من اليهود حنان ورحمة بالمرض من بني آدم فجعلوا جمعية رحمة ودفع كل واحد من ماله على قدر كسبه وحنانه وجعلوا محلا داخل باب البحرية به أطباء ونحو العشرين خادما لمعالجة مرضى المسلمين وغيرهم وما يلزمهم من الأدوات والأقوات كل ذلك من ذلك من هذا المال المتجمع وربما بعثوا بالطبيب والدواء لبعض المرضى العاجزين عن الوصول إلى هذا المحلّ تقبل الله صنيعهم والراحمون يرحمهم الله - فلاحظ كيف جعله هذا الشعور الإنساني النبيل في غاية التأثير بهذه العاطفة الغامرة فأنساه الحكم الشرعي الذي يقول به نظراؤه من الفقهاء المحافظين الذين يرون أن قبول الأعمال البر عند الله مشروط بالانتماء إلى الإسلام فمن خرج عن الإسلام فلا يقبل له منه صرف ولا عدل، بينما نرى صاحب الفتاح يدعو الله أن يتقبل صنيع هؤلاء النصارى واليهود لأنهم رحموا الخلق والراحمون يرحمهم الله. وليس يمكننا في سياق حديث عن أثر أوروبا في تفكير ابن أبي الضياف الاجتماعي أن لا نشير إلى حديثه عن مسرحية الحرية التي حضرها الباي ومرافقوه مع ملك فرنسا في مسرح حديقة

القصر بباريس حيث أظهر بكثير من الإعجاب والانبهار ما تتمتع به المرأة الفرنسية من حرية الاختيار وشجاعة الرأي مما يدل على ما توفر للمرأة في ذلك المجتمع من استقلال الشخصية فأتاح لها التصرف في شؤونها وتقرير مصيرها، ولعل سكوت صاحب الإنحاف عن التعليق على هذه المسرحية واجتنابه المقارنة مع المرأة المسلمة يقوي الاستنتاج بأن موقفه المضمّر يؤيد لحرية المرأة على الأقل في اختيار شريك حياتها وتمردا على نوااميس التفرقة الاجتماعية، وهذا لعمرى موقف متقدم على زمانه وما كان لثله أن يصدع بكمين رأيه لأنه لا يحتمله طبع الزمان على حد تعبيره.

والحق أن المسرحية تتجاوز دلالاتها نطاق الحرية الشخصية لتأخذ وجوها سياسية وحضارية وما تلك الحادثة المروورية إلا تجسيم لانتصار المساواة الإنسانية على النظرة الطبقية وغلبة المنازاع الحديثة على المراجع القديمة وانتصار التحرر على العبودية وظهور الجرأة في التعبير والشجاعة في التفكير وغلبتها على مشاعر التهيب والخشية والخوف والرهبه. وبذلك تجاوزت العبرة من المسرحية القضية الاجتماعية إلى القضية السياسية وعمادها الحرية في مختلف تجلياتها ومراعاة الملوك لمشاغل الجمهور، ولا عجب في ذلك فإن قارئ الإنحاف لا يفوته أن ينتبه إلى احتفاء ابن أبي الضياف بالحرية ومشتقاتها وقد خرج بها عن المفهوم التقليدي العتيق المنحصر في ثنائية الحرية والرق إلى مجال أوسع يشمل سائر مظاهرها وتجلياتها ولاشك في أنه مدين في تطوير هذا المفهوم

للحضارة الأوروبية التي لم يتح لها الازدهار إلا بعد ان رسخت الحرية فيها، فتغذت العقول بلباها في مهد الأمن فأنثجت من أعاجيب الحضارة ما يبهز الألباب وقد وعى جيدا منزلة الحرية في الممالك الأوروبية فانتبه إلى أن أساس الحضارة - وملاك أمرها الجدية - ولذلك عبر عن إعجابه بالممالك الأوروبية المحكومة بنظام دستوري يقيد تصرفات حكامها ويضمن العدل والحرية لأهلها فسمها - أم الحرية - فمن ذلك حديثه عن قرار أحمد باي بمنع الرق وتحرير العبيد حيث يقول: ولما وقع هذا التحرير صار له في أمم الحرية موقع عظيم... وطبع في صحف الحوادث بالبلدان -

ومن الدليل على مدى توق صاحب الاتحاد على الحرية تلك المحاورة التي جرت بينه وبين الباي وهما يسيران في شارع الشان زيليزي والتي رواها في الاتحاد على سبيل المداعبة للباي فظاهرها هزل ولكن باطنها الجد كل الجد قال صاحب الاتحاد متحدثا عن الباي أحمد: - ولم يزل مدة إقامته في باريس ينتقل كل يوم من نزهة إلى نزهة وهو مع ذلك يتذكر تونس وعادات أهلها وأماكنها عند مشاهدة كل عجب ويقول ليت لنا مثل هذا بالحل الفلاحي بتونس حتى أنه مرّ يوما بالمهجع المعروف يشان زيليزي ومعناه ممشي الجنة فقلت له كاد ان يوافق الإسم المسمى. فقال لي : ما أتشوقني للدخول من باب عليوة واشتم رائحة الزيت من حانوت الفطائري داخله فقلت له مداعبا وأنا أتنفس من هواء الحرية وأرد من مائها وقد ماي بأرضها: يحق لك ذلك لأنك إن

دخلت من هذا الباب تفعل ما تشاء أما الآن فأنت رجل من الناس فقال لي: - لا سأمحك الله لم لا تحملني على حب الوطن لذاته وعلى أي حالاته؟ فقلت له إن هذا البلد ينسى الوطن والأهل، كما قال الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن نزيلهم يعاب بنسيان الأعبة والأهل
فقال لي : إذن يصدق علينا المثل المشهور عند العامة - من رأى قمح الناس لا يزرع شعيره -

فلاحظ كيف أن نسيم الحرية أنساه الحذر فإذا به يواجه الباي بمثل ذلك الخطاب الساخر اللاذع.

وفي المجال الاقتصادي اتخذ ابن أبي الضياف أوروبا نموذجاً للاقتداء، ومصدراً من مصادر تفكيره الاقتصادي فلاحظ الاقتصاد المزدهر والعمل الدؤوب والحركة النشيطة بفضل استقرار الأمن وسيادة العدل فأتسع الأمل وأقبل الناس على العمل بنشاط وإتقان فحسّوا معاشهم ونمّوا ثرواتهم ولم يفتت أن يلاحظ ازدهار الصناعة عندهم فشاهد معامل النسيج ومصانع الحديد والأواني المزوقة وتطور التجارة الداخلية والخارجية، بتمهيد الطرقات وتيسير المواصلات وراعتة المخترعات التي ولدتها تلك الحضارة كالبريد وسكك الحديد، والتلغراف - نقل الأخبار يجذب المغناطيس وهو من أعاجيب الدنيا - وماذا إلا أثر من آثار العقول الصافية الناشئة في مهد الأمن المغذاة بلبان الحرية.

لقد استلهم ابن أبي الضياف أسس التنمية الاقتصادية وشروط إمكانها بل شرط الإصلاح المنشود من المشاهد في الممالك الأوروبية، فلا سبيل

إلى تنمية من دون عدل وحرية أمن، حتى يتسع الطموح والأمل ويقبل الناس على النشاط والعمل، فلا بد من إصلاح سياسي يضمن العدل والحرية والأمن لكي تتحقق النهضة الاقتصادية الممولة، ولا يمكن أن تتحقق تنمية اقتصادية إلا بالتدريج وتقدم الأهم على المهم فكل خطوة في الإصلاح تسلم إلى ما بعدها. ولذلك كان نقد صاحب الاتحاد للبايات صارما لأنهم لم يراعوا التدريج في الإصلاح فأهملوا الإصلاحات السياسية المطلوبة ولم يوفرُوا الشروط الضرورية لأمان الناس على أنفسهم ومواهم ومثال ذلك إدخال التلغراف إلى البلاد في الوقت الذي لم تكن في حاجة إليه- فانظر إلى التلغراف بهذه الحاضرة التونسية فإن دخله ربما لا يفي باجر من فيه من العملة وانظر إلى مثله في بلدان أوروبا ومن استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه سنة الله في عباده وبلاد-

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

أما المظهر العمراني فيتجلى فيما شاهده من مظاهر التقدم ومعالم الحضارة بفرنسا حيث بدت صورته كأجلى ما تكون في اتساع عمراتها واتساق بنائها باندهاشه يتعاضم أمام هذه الحضارة المتنامية في الترقى المتوغلّة في التقدم وإذا بعبارات الإعجاب تترى في خطابه منذ أن وظفت قدماء الأرض الفرنسية ولا سيما عند مرأى العاصمة الباريسية فقد افتتن بسحرها وراعه جمالها وأخذ حسن عمراتها بمجامع قلبه فلم يملك إلا أن يتغزل بمحاتها قائلا: باريس وما إدراك ما باريس هي الغاية الحسنة الباسم ثغرها في وجوه القادمين مشحونة بأعاجيب الدنيا

جامعة لاشتات المجاسن ينطق لسان عمراتها الزاخر بقوله: كم ترك الأول لآخر ما شئت من علوم وضائع وثورة وسياسة وظرف وحضارة وعدل تزكو أثماره وتسطيع أنواره تموج شوارعها بالساكين في مراكز الأمن ومضاجع العافية يقودهم الأمل ويسوقهم الحرص على العمل- بلان عين ابن أبي الضياف لتلتقط أدق التفاصيل المدنية والعمران وترصد صور التقدم ومظاهر التحضر ونتائج العدل والأمن واتساع الأمل وهو في الطريق على باريس أو في طريق العودة منها ففي طريق الذهاب إليها يقول: فالسالك في تلك الطريق يشاهد معنى العمران وصورة التقدم في ميادين الحضارة ونتيجة الأمن والامان "لا تكاد تجد موضعا معطلا من نفع شجرة أو حرث أو كلاً مستنبت، يسقى جميعها بغيوث العدل وسبيله المقعمة، يؤد السالك في تلك الطريق السهلة أن المسافة تطول كما يشاهد من حين الطريق وما حف من الأبنية والأشجار والمراتع والأثمار وكثرة المارين على اختلاف الأنواع لا تكاد تسمع صوت متظلم إلا من نفسه وهذا من أعجب ما يسمع مع كثرة المضالم والمكوس وسر ذلك ألما غير مخففة أهلها يعرفون مقاديرها ومصاريفها في مصالحهم على اختلاف أنواعها.

وفي طريق الإياب منها يقول: وسار على غير طريق قدومه فرأى أيضا من الثروة والعمران ما يستوقف الأذهان ولا يحيط به بيان- وحسبك بهذه العبارة الجامعة دلالاته على ما شاهده من رسوخ الحضارة وعمومها وشموها سائر أنحاء فرنسا.

ومن مظاهر المدينة التي سجلها ابن أبي الضياف بكامل الإعجاب ازدهار الحياة الثقافية في فرنسا بفضل حركة الطباعة والنشر التي يَسَّرَت تناول الكتاب للناس بسهولة وسنقتصر على مظهرين مهمين لفتنا انتباه صاحب الإنحاف، أولهما مشاهدته دار الكتب الوطنية الفرنسية، فقد وصفها بقوله: وتوجه إلى دار الكتب المرتفعة المتسعة الهائلة وبها عدد كثير من المصاحف القرآنية وكتب الأحاديث النبوية والدواوين الفقهية، والتفسير وغير ذلك من الكتب الإسلامية وما لا يحصى من الكتب الأفرنجية في سائر الفنون يطلب الجالس في طابقها الرابع من قيم البيت الأسفل كتابا فيطلع إليه الكتاب في الحين بآلة ويسمع الأسفل كلام الأعلى من حلا قيم نافذة من كل طاق إلى ما يليه - وثانيهما الصحافة ودورها في الرقي بالأمم وتثية الأهلي لما في جولان الجرنالات من الفوائد الغزيرة لا سيما إذا كان بالملكة تعاليم أو ترتيب تتحدّد فإن الجرنات حينئذ تصير من الواجب المتأكد لتعميم نفع ما كان منها علميا وإشاعة تقرير ما كان أمرا رسميا إلى غير ذلك مما يتوصل به إليه من أسباب التهذيب الذي أدركته الأمم المتعدنة بالمشاهدة والتجريب فلذلك نرى لها بيلدان أسواقا نافقة وأشواقا إلى مطالعتها متسابقة فمهما يعرفون حوادث أيامهم وقوانين أحكامهم وعوائد بلدانهم ومحبة أوطانهم وتنمية عمرانهم وترية صيغهم وتهذيب أخلاقهم وتوفير أرزقهم وتمدّن سياساتهم وأحوال ذوي رئاستهم وأخبار الأمم الأول ونسبة دولتهم من سائر الدول إلى غير ذلك من صنوف المعارف ونوادير الآداب

واللطائف وفي هذا دليل على الأيمان الراسخ لصاحب الإتحاف بما
للصحافة من دور عظيم في نشر الوعي تهذيب الذوق وتربية الناس
وإصلاح الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية.

غير أن ما سبق من مظاهر الإعجاب بأوروبا والانبهار بمنجزاتها
الحضارية لا يعني أن صاحب الإتحاف لا يرى فيها غير النموذج
الحضاري الحريّ بالاعتداء ذلك أنه لم يكن على غفلة عن الوجه الآخر
لأوروبا وهو الوجه التوسعي الاستعماري البغيض، فقد كان كغيره من
أبناء النخبة التونسية رغم إعجابه الكبير بأوجه التقدم في الحضارة
الأوروبية على خوف من الخطر الأوروبي المهدق بالبلاد التونسية. فقد
كان الحضور العسكري الأوروبي المهدّد لأمن البلاد وسلامتها ماثلاً
للعيان كما كان على علم بضروب التهديدات والاضغوط التي يمارسها
الفرنسيون والإيطاليون على الدولة التونسية ولطالما ندّد صاحب
الإتحاف بتدخّل قناصل فرنسا التي آلت إليها الهيمنة على البلاد رسمياً
بعد معاهدة الحماية.

ومن الدليل على أنه لم يغفل عنه الوجه الآخر لأوروبا، أنه في
غمرة سروره بحفاوة الاستقبال في فرنسا وإعجابه بمظاهر السلوك
الحضاري عند الفرنسيين، ينبه إلى أنهم قد يقبلون للناس ظهر الخنّ إذا
خرجوا من بلادهم فيقول: "وبالجملة فقد ظهر من أهل فرنسا
وسلطانها ورجال دولته مع هذا الباي ما بقي أثره ولا ينسى خيره من
حسن القبول وإظهار المسرة والاعتناء، ولا يستغرب ذلك في حسن

أخلاق هذا الجنس وبشاشتهم في وجوه الوافدين إليهم وحريرتهم التي اقتضت أنهم لا يستكبرون وميلهم للإنصاف لكن هذا الأخير في بلدانهم فإذا خرجوا منها ربّما بعدوا عن هذا الميل إلا ما قلّ منهم".

هكذا كانت أوروبا عند ابن الضياف مرجع استلهم فكري في سائر مجالات الإصلاح إلى جانب المرجع التقليدي الإسلامي لتتشكل منها رؤية للإصلاح قائمة على أفكار جوهرية ثلاث فيما نرى هي أولاً: الاعتقاد بأن النهضة المنشودة موقوفة على إصلاح الجهاز السياسي يسن منهج الحكم المقيد بالقانون ووضع دستور يقبض يد الحاكم على الظلم وإقامة مجلس نيابي وظيفته الاحتساب على الدولة ومراقبتها على نحو يضمن العدل والحرية.

ثانياً: ضرورة الاقتباس من أوروبا بما لا يخالف روح الشريعة الإسلامية ومعنى الاستلهم في اقتباس النظم الإدارية والمؤسسات القانونية والمدنية. ثالثاً: توخّي التدرّج في مسار الإصلاح الشامل بحيث تقضي كل خطوة في الإصلاح إلى ما يليها من دون ارتجال أو تسرع

ومن ثم كان ابن أبي الضياف إلى جانب صديقه خير الدين رائدين في المساهمة في تأسيس وعي سياسي حضاري وإرساء تفكير إصلاحي قوامه الدعوة إلى حكم دستوري برلماني يضمن أسباب النهضة والترقي بالإيالة التونسية خاصة والأمة الإسلامية ودعائمه العدل والحرية والأمن وبذلك يتسع الأمل الباعث على العمل الذي هو ملاك كلّ تقدّم وسرّ كلّ تمخّذ.

حقيقة الكتابة

بقلم: الباحث محمد الرزقي

تُمهيد: إن التأمل في التاريخ الإنساني، يلاحظ كثرة الكتاب و الكتابات، وقد بدأت الكتابة حتى قبل اكتشاف الحروف، من خلال الرموز و الأشكال و العلامات، و هذه الكتابة التي يحلو لنا أن نسميها بدائية، مازالت محافظة على وجودها و فاعليتها و تقاليدها إلى يومنا هذا، فنجد رسائل بالجملة على جدران بيوت الخلاء، و فوق طاولات الدرس، وصولاً إلى محطّات الحافلات، و كلها تريد أن تقول شيئاً، و أحياناً يرى العابرون أمام هذه العلامات والكلمات، أنّها أقرب من الفراغ و العبث، يقف ورائها زمرة من المستهترين الماخذين الممجّ، فما لا نفهمه نلحق به دوماً صفة الدناءة و الانحطاط.

و لسعد الآن إلى كتابة المتحضرين المنضبطين، الذين يستعملون الأوراق و الأقلام الجافة، لتقفز إلى الأذهان جملة من الأسئلة المقضبة المحيرة، التي تتثال على العقل تنكاً جرحه و كلها تصب في اتجاه واحد وهو ما الجدوى من الكتابة؟ و لماذا يكتب المرء أصلاً؟ و لمن نكتب؟ و هل هو مطالب بفعل الكتابة؟ و بلغة الفقهاء هل أن الكتابة فرض عين أم هي من فروض الكفاية؟ و هل هذا الفعل هو أفضل الأفعال؟ و أين نصنف كتاب التكسب الذين يعيشون مما يكتبون؟ و ما الفرق بين

المتكسب بشعره مثلاً، و المتكسبة برقصبها من الجهة الأخرى، فكلهم مبدعون في المجال الثقافي، إذا فهمنا الثقافة، أما كل ما هو مكتسب، مقابل حالة الطبيعة، فالرقص مهارة وثقافة تستعصى على أهل القلم في أغلب الأحيان.

1- الكتابة و دوافعها

ليس الوازع الذي يحركنا إلى الكتابة هو وازع شخصي يهدف إلى إرضاء غرور النفس و إبراز تفوقها و براعتها على أتراب اليوم، بدعوى الإبداع، كما إن هذا الدافع يتجاوز حدود ما هو آني ليطل المستقبل و يسابق الزمن، فالكتابة تضمن لصاحبها مكانة متميزة في سجل الأموات الأحياء، الذين لا يسقطون من دائرة الزمان، فلا يغمرهم بحر الموت، بل أنهم يقعون في دائرة التذكر و المنافسة حتى مع الأحياء التي ولدت من بعد موتهم، و التي سبقت ظهورهم، فيتحولون إلى مرجع و نقطة انطلاق، و في أحيان كثيرة يتحولون إلى أصنام جديدة تعبد و تمجد، لأنها نالت قصب السبق و الريادة في الباب الذي طرقت، و يلبسون هذه الآثار لباس العبقريّة و النبوغ، و يضعون متوناً و تفسيرات تشرح المستغلق من هذه المؤلفات، فتتضمن هذه الشروح، تحاليل و استنتاجات و فوائد لم تخطر على بال المؤلف أصلاً .

2- علاقة الكتابة بمجال الحبس

و لعل هذا الدافع الذي ذكرناه يختزل كل الدوافع التي يمكن ذكرها، فهو المحفز الأساسي لعامة الحاملين للواء القلم، فيسارعون إلى ولوج هذا

الباب، فيكتبون الشعر والقصة والرواية وغيرها من أشكال التعبير، معتمدين بوابة الحس أساساً، وإن كانت الارتسامات تتحدث عن مسائل معنوية كالمشاعر، لأن هذه المشاعر لم تغادر دائرة الاهتمام بعالم الحس، ولنضرب لذلك مثلاً- وقدما قيل بالمثال يتضح الحال- فالروايات التي تتحدث عن الحب وهو القضية الرئيسية وقطب الرحي في جل الأعمال الأدبية، يقدم عادة على أنه حب بين شخصين، وإن لم يكن لهما وجود فعلي إلا أن وجودهما في ذهن الكاتب المتحذر في واقعه والذي ينهل من تجاربه الشخصية، يجعل لهما إحدائيات زمانية و مكانية معينة، زيادة على طبيعة هذا الحب القائمة، إما على توهج عاطفة بما هي تبادل للكلمات والآهات، فالكلام وسيلة حسية تعتمد مدلولات حسية، تنهض بها دلالات من نفس ضرتها، أو يكون هذا الحب قائما على ثوب الغريزة والغريزة قمة الحس.

و لا يعني هذا أن يكون الكاتب مثاليا مثيرا من عالمه الحسي، وإنما الانفلات من عالم الحس لا يقدر عليه الشعراء والأدباء، الذين يلاحقون صور الحس في أثواب المعنى، فهم أعجز من أن يخرجوا من المعركة وهم أحد أطرافها، بل وقودها الأساسي، فيلهون الناس بالشعارات والحكايات والأحاجي، فيغادر هؤلاء الناس مستنقع الحياة اليومي، لينتقلوا إلى عالم خيالي طفولي، مركب من صور حسية، ليتبعوها فتأخذهم إلى متاهات لا يعودون منها أبداً، لذلك من أدمن هذا اللون من التعبير مطالعة أو تأليفاً فإنك تجده غارقاً في بحر اللذة على

المستوى الشخصي، بدءا من منطلقا ته الإلهامية، وصولا إلى الأدوات المتبعة و المناهج التركيبية، و يتصور نفسه انه يبدع فنا، يخرج المطالعين من دائرة الحس، فتكون الرواية أو القصيدة، قد أخرجت القارئ من سجن إلى سجن، إلا أن المؤلف لا يعي بأنه يبني سجوننا جديدة للعقل، و القارئ لا يدرك بأنه يعمر هذه السجون، و يطيل في أعمار هؤلاء الجلادين، و يضع في نفس الوقت غطاء على عين الذات المتطلع إلى مغادرة دائرة الحس، و دائرة الحس هنا ليست دائرة ماهو عملي، و إنما المحسوس هو كل فعل حسي في منطلقا ته و مضمونه، يحاول أن يتخفى وراء المعاني، إلا أن المعاني لا تحملها إلا أواني خاصة بماو أواني القصدير يحوي بعضها بعضا. فمدعوا المعرفة، وان كانوا من المشتغلين بحقل الفلسفة، فهم يكرسون قيم الحس. و هذا التكريس يأخذ درجات متباينة، لعل أولى هذه الدرجات أن دخول الجامعات كانت ورائها غاية براقمانية هي الحصول على شهادة جامعية، لأن الحصول على شهادة يمكنه من راتب و الراتب هو يقوده لتحصيل بعض شهواته و شهواته الأخرى يتمها يقرض، بمعنى أن غايته لم تكن المعرفة و إنما المعرفة هي مطية للوصول إلى مطالبه الحسية و هنا تبرز طبقة سفسطائية جديدة تحمل لواء المعرفة و الفكر إلا أنها تقدم خدماتها لمن يدفع أكثر، سواء كان هذا الدفع ماديا أو على مستوى تقديم الاحترام. فلما لا نرى هؤلاء المدعين في حافلاتنا و أسواقنا و مقاهينا، و لماذا لا نراهم ينشرون معرفتهم وسط الكادحين، المتلهين بكرة القدم و الجنس

و المغنين، و الذين يكفرون بكل ما يقولونه أم أن براعتهم لا تظهر إلا أمام طلبة، أمكنت قواهم العقلية، فقبل الوصول إلى أبواب الجامعة شتت اهتمامهم في أبواب عدة، و هم يرون أنفسهم قد قطعوا طريقا طويلا، و لم يبق أمامهم إلا السير، لذلك تجدهم منصبا على النجاح، بقطع النظر عن المستوى و الأداء لأنهم يعيشون ضغط الواقع الاقتصادي، إضافة إلى ضغط أسرهم التي تذكرهم في كل مناسبة، أنها تضحي لأجلهم و ما عليهم إلا رد الجميل، فيتحولون إلى إناء للملء و الإفراغ، عملاً فيه معارف حسية، لتعود البضائع إلى أصحابها من جديد، لكن التغير يكمن في السورق الذي تلف فيه هذه البضائع، فيتحول هؤلاء الطلبة إلى عبيد تمجد أسياذ المعرفة بين أسوار الجامعة، و هذا التمجيد مرده قصر النظر، فهم لا يستطيعون النظر خارج أسوار الجامعة، فيقع خداعهم و إيهامهم أنهم وحدهم من يفهمون الذات الإنسانية، و بعد طرح هذه الذات على طاولة التشريح المعرفي، مستعملين مشروط الموضوعية و مخدر البحث عن الحقيقة، رغم أن الحقيقة يعسر أن يظفر بها عقل مظلم يتحرك داخل غرفة أنكون التي تغطيها العتمة.

فالعقل في حقيقة الأمر يستمد معرفته من الحواس، إلا أنه يحول هذه الأوليات إلى مقولات كلية، تحاول أن تفهم ما يجري في الواقع فيختصر الوجود بأكمله داخل العقل، لنجد أن العقل نفسه، و المفروض أن يكون حاكما، هو محاصرا بالواقع و محكوما به، فلا يستطيع أن يفهم أو يتصور شيئا يخرج عن دائرة الأكوان، و حتى هذه الأكوان، يبقى فهمه لها فهما ناقصا، باعتبار أن الاكتشافات الجديدة التي تقع يوميا، تبين مدى جهلنا

بما يدور حولنا، بدءاً بأسرار الذرة، وصولاً إلى حدود مجرتنا و ما يقع وراء السماء الدنيا كما سماها القرآن، فهل أن وراء الحجر هو الخلاء و الفراغ أم نجد عوالم أخرى يستكف العقل عن ولوجها بدعوى الموضوعية.

ألم تصور الآثار و الأحاديث النبوية، و من قبلهما القرآن، أن السماء الدنيا بما فيها من كواكب و أجرام، ماهي إلا حلقة في فلاة، مقارنة بالسماء الأولى التي تعج بمخلوقات يضيق العد عن حصرها، و الأمر نفسه ينطبق على السماء الأولى، التي هي بدورها مثل حلقة في فلاة، إذ قورنت بالسماء الثانية، و هكذا إلى أن نصل إلى السماء السابعة.

و ختاماً نشعر أن الأداة التي نخوض بها فهم العالم، و فهم ما حولنا، يجب أن تتغير، فماهي هذه الأداة؟ و هل هناك أداة أخرى يمكن أن تحل محل العقل؟

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

فإذا أمعنا النظر في ذواتنا فلن نجد أداة يمكن أن تتميز بالاتساع والفاعلية أفضل من الروح، لكن كيف السبيل للحديث عن الروح و قد حددها الخطاب الإلهي بقوله "يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي" (الإسراء 85) فأوصدت هذه الآية الباب أمام الحديث عن ماهية الروح، فأن لنا سر أغوار هذه المسألة الغامضة دون السقوط في ماهية انفس و التخمين؟ ثم ما علاقة فعل الكتابة بالروح؟ و هل يمكن الظفر بكتابة روحية؟، و على طريقة أهل الإشهار، فكل هذه المواضيع إضافة إلى مسائل أخرى تجدها في العدد القادم من مجلة الإتحاف!!!

هل يمكن الحديث عن أدب هزلي

بقلم : عبد المجيد يوسف

تعودنا أن نطلق عبارة "الأدب الهزلي" على إنتاج فئة من الأدباء أو الكتاب عرفها تاريخ تونس في النصف الأول من هذا القرن على الخصوص. واقتربت هذه الظاهرة في الأصل بنمطين إبلاغيين: الكتابة المتمثلة في الصحف الهزلية والمشافهة المتمثلة في الأعمال المسرحية أو المواقف التمثيلية التي كانت تعرض في المؤسسات المسرحية والملاهي والمقاهي الراقصة في العاصمة وفي كبريات المدن... فالأدب الهزلي ظاهرة أفرزها ظرف له مواصفاته التاريخية والثقافية.

ثم بدأت هذه الظاهرة في الانحسار والتراجع مع انحسار تأثير النمط الثقافي الاستعماري وتقهقر الرقعة الكلاسيكية في الأدب التونسي وتحول مفهوم الشعرية من الإيقاع والشكل واساليب البديع إلى مواقع أخرى من الخطاب الشعري كالمضمون الوجداني مع الرومنسية التونسية، أو المحمول الإيديولوجي مع خليفاتها الواقعية، أو التعبير عن خلجات النفس المنحسرة المهزومة بعد تقلص دور الواقعية في الثمانينات. وهكذا اقترن مفهوم الهزل في الأدب أو "الأدب الهازل" بمفهوم الهزال واحتفى هذا النمط من الإنشاد فتحوّل إلى وسائل تعبيرية أخرى غير الوسيلة الأدبية... وربما أفرد لما بقي منه مجالات أخرى غير

الصحافة الأدبية الجادة وأصبح الناس يقرؤونه بكثير من الاستخفاف أحيانا وبشيء من التسامح والأريحية أحيانا أخرى لكنهم لا يعتقدون به في كل الحالات.

الأدب الهزلي عبارة تحتوي على مفهومي متناقضين :

مفهوم الأدب من حيث هو جدّ وهمّ وتعبير ينتفي منه النفع ويقصد منه الجمال المحض الذي هو أحد المفاهيم الثلاثة المحتكم إليها في مجال القيم : الجمال والحق والخير. والأدب فرع من فروع الفن ينطبق عليه حكم الكل فهو من هذه الوجهة رؤيا أو حدس لموضوع خارجي أو داخلي... هو معرفة تخيلية ذات طابع كوني تلامس من الإنسان بعده الانطولوجي انطلاقا من خبرة الفنان الشخصية.

مفهوم الهزل الذي هو قائم على المفارقة واللاتحكيف بين الكلمات في صلب الخطاب الواحد أو بين المواقف في صلب التعامل المنطقي أو بين الشخصيات في منظور السلوك القوم.

فكيف نجتمع بين هذين المتناقضين في تحديد واحد ونربط بينهما بتبعيّة النعت للمنعوت؟ بين الأدب كرؤيا أو حدس أو معرفة تخيلية ذات طابع كوني وبين الهزل الذي هو موقف معياري ذو مدلول اجتماعي لا مجال له إلا الإنسان في بعده التحريبي (الامريقي) إذ أن الهزل تجربة فاشلة في مسامرة المألوف تتخذ منها موقفا لا مباليا... ولا شيء يضحك خارج ماهو بشري كما يقول برجسون في "كتاب الضحك" ؟

إن تحليل الضحك والأدب يؤدي إلى مصادرة جملة من المفارقات تجعل من جمع الهزل بالأدب خطأ أصوليا : (ابستمولوجيا) المفارقة الأولى :

إن الهزل باعتباره لا تكيّفا : هيئة تثير الضحك في اللامبالي مما يرى أو بما يسمع بحيث تستمر مقاييسه القيمية في العمل والتقييم دون تورّط في الموقف الوجداني أو الموقف العملي الحركي، ولكن هذه المقاييس مستتارة على أية حال، مميّزة بين الفضائل والذائل.

إن الفن خطاب و "الأدب الهزلي" كذلك، وكل خطاب يمكن تصوّره من زاويتين : الإنتاج والتقبّل، إلا أن الفن في غايته ووسائله يختلف كل الاختلاف عن "الأدب الهزلي" : الفن ملكته الحسن الفني والذوق والتخيّل والحس وهو يستهدف المتقبّل باعتماد جمالية الإنتاج المثيرة لجمالية التقبّل مستصديرا بذلك حكما جماليا ذوقيا، والحكم الجمالي لا يمكن اعتباره حكما منطقيا ولا نظريا، أما الهزل فيعرفه كانط بأنه "توقع مشحون ينتهي إلى نتيجة عكسية" والتوقع لا يكون إلا حسب الحكم المنطقي الذي يصدره العقل باعتباره أداة تمييز وميزانا قيميا تقيّم به الأوضاع والمواقف... وهكذا نحصل على مفارقة اصولية بين الأدب والهزل.

المفارقة الثانية :

إن ميكانيزمات التأثير الجمالي في الشعر توجد من بينها الصورة الصوتية أو الإيقاع الذي يحدث في النفس انسجاما حركيا بين النص

والمتلقي، والصورة البلاغية التي تحدث انسجاماً معنويًا. وكل ذلك يتم في إطار اللغة ولا سبيل إلى تحقيق الحدث الشعري خارج اللغة وينتهي الحدث الشعري إلى تحقيق حالة من السعادة الوجدانية غير المفسرة حالة وجدانية منبئية على الانسجام الحدسي بين الكيان الداخلي للمتلقي والعالم الذي يقترحه النصّ الأدبي أو يحيل عليه، أما ميكانيزمات الهزل فإنها متنوعة منها ما هو لغوي ومنها ما هو إشاري أو حركي أو مرجعي (*) ومهما تنوعت الوسائل السيميائية فإن هدفها هو الاضحاك من الأشكال أو من الحركات أو من الطباع التي يصدر حولها المستهدف حكماً قيمياً بالرجوع إلى معايير ثابتة وهكذا نحصل على مفارقة مرجعية بين الأدب والهزل.

المفارقة الثالثة : ARCHIVE

إن الهزل كعملية تواصلية يقتضي عناصر متواصلة هي الضاحك والمضحك والمضحوك منه. هذه العناصر هي بالضرورة اجتماعية مادامت عملية الاضحاك لا تتم إلا داخل ما هو بشري، لكن بشرط أن تكون العلاقة بينها هي اللامبالاة بحيث تسمح الموضوعية بحصول الضحك عن طريق إثارة مجموعة من المواقف سنبحتها في الإبان، أما قائل الشعر ومتقبله فتنتفي منهما الصفة الاجتماعية ولا تظل قائمة سوى الصلة الإنسانية المتعالية على الاعتبارات اللصيقة بالحياة، وهذه مفارقة "علائقية" وكل هذه الخصائص المقارنة تجعل الهزل "فناً" مساوياً للصنعة، هو قدرة مكتسبة على استعمال وسائل في تحقيق غرض محدد

هو الإضحاك الهادف إلى التسلية أو الإصلاح أو النقد أو إلى غير ذلك من الأهداف الكثيرة الممكنة، فهو بذلك مخالف للفن البياني كالخطابة والشعر، بل هو فنّ آلي يمكن إلحاقه بالفنون النفعية كالحدادة والنجارة والعمارة.

إن هذه المقدمة النازعة إلى التنظير تجعلنا نتلمس الطريق إلى محاولة إصدار الموقف: هذا الموقف هو أن لا وجود لأدب هزلي وما كتب منه في هذا الباب لا ينتمي إلى الأدب لاعتبار غايته التبرغماتية ولأسباب التي بيّناها آنفاً، ولا يصحّ من ناحية منطقية، ولا يجوز من وجهة أصولية أن نجتمع بين الأدب والهزل وعلينا أن نعرّف الهزل بما يناسب جوهره ووسائله وغايته.

ويفضي هذا الموقف الذي اتخذناه إلى دفع ملابسات واوهم يمكن ان يغتنمها المجادل في محاولة التصدي لو تساءل : أين تدرج كتابات مولير الهازلة وكتابات الجاحظ وبديع الزمان الهمداني والكتابات الساخرة الاخرى؟ والجواب أن هذه الكتابات لم يقصد منها الإضحاك لحدّ ذاته في الاصل وإن كانت صياغتها تثير الضحك أو الابتسام أو تشيع السرور في قارئها فإن ذلك التأثير جانبي غير مقصود بل إن ذلك الابتسام الذي يثيره كتاب أخبار الحمقى والمغفلين في أشخاص معيّنين لا يحدث إلا لمجهود فكري هادف إلى تصور ملابسات الحدث المضحك أو القول الهازل من خلال ما يستحضر المتلقي من ثقافته القديمة التراثية من أوضاع مقارنة إلى حدّ ما للحقيقة.

لقد ذكرنا ان عناصر الإضحاك الضرورية - الضاحك والمضحك والمضحوك منه لا بد أن تربط بينهم جميعا صلات اجتماعية لذلك نحن نستطرف قصة محفوظ النقاش وقصة مريم الصنّاع- وحكاية الكندي مع سكّان داره لكننا لا نضحك إلى حدّ انهضام اللبّاء في بطوننا (كما حدث للمحافظ) بسبب نسبة القيم التي تتم في صلبها المفارقات المضحكة، فالبخيل الذي تحدث عنه الجاحظ هو غير مفهومنا الحالي للبخيل، والبخيل الذي أضحك جمهور مولير ليس هو بخيل اليوم لكننا مازلنا نقرأ "البخلاء" بشغف كما نقرأ "البخيل". وهذا الشغف سببه شيء آخر غير الإضحاك... هذا الشيء هو "الأدبية".

لقد أدى بنا هذا الموقف قراءتنا لكتاب حسين الجزيري وقد انطلقنا من حكم مسبق موروث لم نضعه قبل الآن موضع تساؤل... وكانت النية أن نبحث عن مظاهر "الحزن" في هذا الأدب المضحك" فإذا بنا إزاء كتابة لا تنتمي أصلا إلى الآداب... وقرأنا "دواوين" هزلية أخرى فتأكدت ضرورة البحث في المفهوم قبل تكريس الفكرة الشائعة الموروثة أو نقضها لذلك أردنا أن نقدم ديوان الجزيري نموذجاً لهذا الصنف من الكتابة.

الهزل في ديوان حسين الجزيري :

يحتوي "الديوان" على واحد وستين نصّاً مصنفاً على النحو التالي:

- نصّان غير هزليين

- خمسة نصوص هزلية يصعب تصنيفها مضمونياً

أربعة وخمسون نصاً موزعة على محاور مضمونية تصنف حسب معيار أخلاقي في باب الرذائل، كالجشع وحبّ الأكلعة والانحراف السلوكي ومخالفة القيم الخلقية والفردانية والتكالب على المال وسوء تنشئة الأطفال وحرمانهم من الدراسة والتذبذب الثقافي والتغريب والتسلق الاجتماعي وشكوى الفقر والاستغلال غير المشروع للآخر وإضاعة الوقت فيما يجدي وصدام الراجلين بالسيارات وغلاء المهور وسلوك النساء الانحرافي في المقابر وفي أمكنة أخرى وتعاطي المحدرات وقد أذى الجزيري هذه المضامين بطرق معروفة كان تحدّث عنها الفيلسوف هنري برجسون في "كتاب الضحك" (صدر سنة 1900):

1- هزل الكلام :

إنّ الخطاب وخاصة ما كانت غايته الإبلاغ (بعد أن نفينا كل غاية جمالية عن الخطاب الهزلي) خطي التدفق، متحدّد، مستمر في اتجاه أفقي اطرادي، متغير الجرس من متكلم إلى آخر ومن مقام إلى آخر: هو حركة أبعد ما تكون عن الآلية، على ذلك جرت سنن التواصل في اللغات البشرية الطبيعية. ولنتذكّر هنا ما قاله "كانط" بأن الهزل توقع مشحون ينتهي إلى نتيجة عكسية ولنتصور عملية مخاطب عادية فيها باث يركّب ومتقبّل (أي ما أسماه كانط بالتوقع المشحون) إلى أن الباث تحوّلت سمة الخطاب عنده من الطبيعة إلى الآلية في شكل سلسلة تصويّية تتكرر على هيئة الاسطوانة المعطّبة فيصبح ذلك عنده مثارا للضحك وقد اعتمد الجزيري هذه التقنية على عدة أنساق :

نسق تناصّي: تمثل في تركيب أنظمة الكلام من قديم وحديث مع ترديد النص المستعار على هيئة اللازمة بطريقة يفقد بها الكلام انسيابه الخطّي ليصبح تكررًا آليًا مضحكًا، ففي نصّ "عجائب السجن" (ص 29 من الديوان) يستعير عجزًا للمنتهي "مصائب قوم عند قوم فوائد" مع تزيله من مجال الحكمة والأدب إلى مجال الهزل، ويستعمله "قفلا" لفقرات النص :

فقلت وطرفي سارح في فنانه

مقابر قوم عند قوم محابس

فأخرجت منديلي وقلت لمن معي

منادل قوم عند قوم سحائب

فقلت وفي الأحشاء من ذاك حرة

رغائف قوم عند قوم عصائد

نسق لغوي: تمثل في الجمع "الخيميائي" (*) بين اللهجات واللغات من عامّي وفصيح وعربي ولاتيني وكل ذلك يحدث حالة من التنافر في الكلام المبثوث ينتج عنه ارتباك مضحك في جهاز التفكير لدى المتقبل، فينتقل السامع أو القارئ بين عديد الأنظمة البلاغية في وقت معًا، فيحصل على مدلول ملوّن كعباءة البهلوان تلوننا صارخًا متنافرا بعيدا كل البعد عن الجمال:

فما في السينما تنال علما

ولا من فرجة في "الفوتبال"

ففي كل يوم حادث إثر حادث

تحدثنا عن كلها "جورنال"

ومن ناحية أخرى يحدث إدماج العامية بهذا الشكل النافر في الخطاب المنظوم إثارة الفضول السياسي، ربما بشكل غير واع ولا محلل... ذلك أنّ النظم كان من أهمّ الاشكال الكلامية التي تقدّم فيها الثقافة، ففي عصر الجزيري كان الاهتمام بالمنظوم هاماً .. إضافة على أن الكتب المقررة في الجامعة الزيتونية كان بعضها يقدّم منظوما كابن نافع وابن الجزيري وابن احرور، فالمنظوم إذن هو الخطاب الحامل للمعرفة والثقافة مما يجعله يمثل تعالياً سلطوياً على السوق ولهاجتها، فإذا يختلط هذا المنظوم المتعالي بلهجة السوق يصبح مثيراً للضحك كان المستهدف يرى وجيها رفيعا قد زلق بقشرة موز.

2- هزل الطبايع

ترجم الطبايع إلى سلوك، والحكم على السلوك يدخل في إطار الأخلاق المنظمة للتعامل، إلا أن الشخصية قد يعترى تصرفها خلل تتخذ منه موقفاً عملياً أو انطباعياً أو وجدانياً إذا استثارنا ولم نستطع أن نتعامل معه بحياء ولا مبالاة، فإن كان المتصرف الشاذ لا تربطنا به صلة آيا كانت مكنّتنا ذلك من أن نضحك منه، وقد رسم الجزيري نماذج من هذه الطبايع:

الشخصيات التي تعاني جموداً أو تصلباً في المواقف والأهواء بحيث

تفقد إمكانية التكيف مع الجوع أو الفقر أو الحاجة أو إغراء الرفاهة
فيرسم هذه الشخصيات مسلوقة الإرادة عارضة لحالاتها في كلام قريب
من الهذيان بحيث تختلط أنظمة الكلام، فيكون كلامها صورة من
داخلها الفاقد للرصانة والتكيف:

وزاد عذابي أن رأيت صبيكم

وأنتم سكوت في الشوارع يلعب

الم تعلمي ان المكاتب فتحت

فما بال هذا الهصك لا يتمكث ؟

وكتيرا ما يكون للمقام دور في إذكاء المظهر الهزلي، بل عن هذه
الشخصيات هي في الحقيقة ضحايا المقام، فعيد الفطر وعيد الاضحى
وموسم الاصطياف... كلها مقامات تجمد الشخصيات وتسحق قدرتها
على التكيف فتزول حالتها إلى الإضحاك:

"تحيّرت والرحمان، لا شك في أمري

وحلت بي الأتراح لا شك في أمري"

فذلك ما قال الخلايعي الذي

قضى الصيف في "المرسى" تقلد في المثري

وقد باع من بيت الرقاد فراشه

ليقدر في شط الخلاعة أن يكري

ومن هذه الوجهة تعرض كتابات الجزيري إمكانات متعددة للقراءة

إذ تثير اهتمام عالم الاجتماع والمورخ...

3- هزل المضامين :

ذكرنا في موضع سابق إن مواضيع النصوص الهزلية التي كتبها الجزيري كانت كلها رذائل. إن المستهدف بالإضحاك من هذه المضامين تثار لديه أحكام أخلاقية، لكنه لا يتورط ذاتيا في المفارقة المضحكة فيصبح فاعلا فيها أو متأثرا بها ... إنه يصدر حكما منطقيا، لكنه في حالة القراءة لا يسعه أن يكون ذاتيا أو متأثرا، بحكم الطابع الخيالي أو التمثيلي للمضحك منه ، لذلك فالحكم الذي يطلقه عليه سيكون وليد الظرف الموضوعي، هذا الحكم هو الضحك، ومن هذه الوجهة يصبح الضحك موقفا عدوانيا وإدانة للمضحك منه...

في الأعمال التمثيلية الركحية ينسى المتفرج لوهلة قصيرة أن للممثل ليس هو في الحقيقة المضحك منه بل هو مجرد قائم بدور، فإذا زالت الغشاوة عن المتفرج وزالت المطابقة، بالفصل الذهني، قام للمثل وشكره... وفي حالة القراءة (حسين الجزيري مثالا) يتملص الكاتب من هذا الوضع بالتميز اللغوي والأسلوبي بينه وبين المضحك منه عن طريق إصدار الأحكام الأخلاقية فيصبح الكاتب ممثلا للفضيلة، فيتخذ بذلك موقعا موازيا للقارئ ويوجه السبابة نحو المضحك منه باعتباره ممثلا للرذيلة... إلا أن الفارق بينه وبين القارئ يظل رغم ذلك قائما... إذ يكون هو مهتما، متورطا... في حين يظل القارئ لا مباليا... ولهذا السبب نرى انه من النادر جدا أن يضحك المتفرجون أو القراء... ومن مظاهر العدوانية التي تحدثنا عنها، في نصوص الجزيري نسوق هذه

هذا الذي كأس الممات اذاقني

والجسم أفرمه كلحم عتارس

أقول إنك كنت تجري مسرعا

كيما تقيم عشية في رادس ؟

وثمة شكل آخر من أشكال العلاقة العدوانية القائمة بين الضاحك والمضحك منه وهو استشارة عامل المقارنة: يعرض الجزيري شخصيات جامدة عاجزة عن التكيف، كأن يصف جزع أحدهم من انقضاء شهر الصيام لأنه سيفتقد بافتقاده أصنافا من الطعام أو يذكر مرض أحدهم بالتخمة من جراء الإفراط في أكل لحوم الأضاحي... فيستثير بذلك ضحكنا إذ نشعر أننا قادرون على التكيف معه، وأنها بفضل ديناميكية شخصيتنا في وضع أفضل منه. إن هذا الإجراء هو في الحقيقة ناتج عن رد فعل دفاعي إزاء اتهامات الآخر... أي إزاء المؤسسة الاجتماعية كعامل حاسم ومهيمن، وغير متسامح... كامن في داخل الذات أو خارجها، وليس الضحك سوى محاولة إثبات للآخر موقف الإدانة لذلك الوضع أو لذلك السلوك والبراءة منه لذلك فإن اللامبالاة التي تحدث عنها برجسون في كتاب الضحك لا تطول سوى الوعي (وحين حرّر برجسون كتابه كانت نظرية اللاوعي بصدد التأسيس) أما فيما أعمق من ذلك فإن للضحك عاملا آخر هو الخوف أن يتحول إلى موقف دفاعي عدواني، أما حديث فرويد عن كون الضحك شحنات

انفعالية أو جنسية زائدة نتخلص منها "بالتفريغ" في شكل ضحك فلا تعارض رأينا هذا وربما تدعّمه... ذلك ان من يعاني من مثل هذه الشحنات يكون أكثر قابلية للاستشارة... بل يكون ذا قدرة فائقة على تحويل كثير من المواقف إلى هزل مضحك.

خاتمة : إن الكتابات الهزلية لا تنتمي إلى الأدب لكنها كتابات من جنس خاص وإن اعتمدت بعض الأشكال التي تكرر عادة للأدب كالبحور الشعرية... لأنها تعتمد وسائل وتهدف إلى غايات غير الوسائل ولا الغايات الأدبية، لكن ذلك لا يعني الاستغناء عن هذا الصنف من الكتابات لما قد يكون لها من دور كعبرة ثقافية يهتم بها السياسي والمؤرخ وعالم الاجتماع وعالم النفس...

وقد ظهر لنا من دراسة كتاب حسين الجزيري بعض وسائل الإضحاح كهزل الطبايع وهزل الكلام وهزل المفضلون لكن ما أوردنا من امثلة من نظم هذا الكاتب الهازل تخرج كتاباته عن جنس الأدب وتنفي عنها السمات الجمالية .

المصدر :

- ديوان حسين الجزيري

المراجع :

- الموسوعة الفلسفية لعبد النعم الحفني. دار المعارف سوسة تونس 1992

(*) إشاري : كالتعبير بسحنة الوجه أو العينين... ومرجعي : كأن يستقر في ذهن المثلقي أن أي كلام يتفوه به المضحك الفلاني لابد أن يكون هزلاً، حتى ونحن كان الملفوظ غير هزلي في الأصل .

قصائد قصيرة

شعر : مختار المومني

* عمس

العمس

خمسون نقاحاً فاسدة

ARCHIVE

فمن يشعل الريح

<http://www.alukah.net/magazine/8/0/article.php?id=10888>

في الجنة البارة

* حياة

هذي الحياة

مهرة جامحة

من لي

بفرصة سالحة

* ضيف

وحده

ملك الموت

يدخل دورنا

بلا إذن

ويسرق الفرحة منا



ARCHIVE
الكل يسير ببطء
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

وحده الزمن

يمضي سرعاً

إلى غايته

* حرب

ما تأتي به الحرب

تأخذ الحرب

فمن يطفى النار؟!

* كناية

الشاعر

يكتب أحلامه

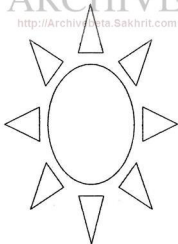
الفيلسوف

يكتب أفكاره



ARCHIVE

<http://ArchiveBeta.Sakhril.com>



رحيل

شعر : حسن دولة

الإهداء : إلى روح الشاعرة سلوى الفندري إليها ودمع الروح
يتدفق من عمق الوجدان أهدي هذه الجراحات الندية

وحيدة كنت

تقنين على جرة

الوقت العنيد

حافية الروح

تأملين في اندماش

مشهد الزيف العابر

أمام ناظريك

قبل الرحيل

وحيدة كنت

تبسمين في انشأ

للذين أضاعوا

في زحمة الليل
الملهي بالأغنيات
أحلامهم القديمة
للذين رقصت
على كفوفهم الجلي
بالأمل النانه...
عصافير اضاءت
في غفلة منها الدليل
وحيدة كنت...
وكنت غريبة مثلي
تعلنين...
على مرصيف الوحشة
وجوه الغربا.
المسافرة دون مرجوع
تودع مليئة...

موغلة في الودل
الحب فيها ممنوع
لاشي فيها ...
يبحث النور في القلوب
غير الأسى والدموع
والليل الطودل
ماذا أقول لك سيدتي
يا التي بجي همسك
يراقق أمسك
الصباح الجديد
يشهد على النجم
كيف يراقص الضياء
المبلل بسحر السماء
يا التي بجي صوتك
آيات العشق ...

أبدى الخلود
يعيد للخرق شبابي
ينسي العاشق عنايه
ويهديه عمرا جديدا
يا التي يزهر
على ضفاف صمك
حريص الكلام
وعذب المنام
وخلو على طرفه
كل مساء...
هديل الحمام
وينح للواقفين
خلف صهيل الريح
حلما إلهينا...
ينضي غيمة حلي

تسكن جنن السما.
ماذا أقول لك سيدتي
أ أقول لك عودي ؟
كي تسعيد الحياة معناها
والنجوم سناها
ويعود بعد الحوا.

سحر الوجود
كيف أقول ذلك كيف ؟
و أنت مرتعبي ،

كي تعودي
ماذا أقول لك سيدتي
مازلت كعادتك
لخطين بيوحك الخرافي
قصص العشاق
مازلت كعادتك

تضمدين ...

جراح الليل الطويل تبعين فيه

مرغبة بالحياة

بعد ما صار قليل

ما زلت كعادتك

قرشين ...

مرحيق الورود الذابل

ARCHIVE

<http://Archivebeta.sakhrit.com>

وتكسين ...

على جناح الحلم المهرئ

احلى الذكريات

التي لا تموت

ما زلت يا سيدتي

مرغم غيابك ...

توقعين للناهين

تذكّرة للسفر
إلى مدينة الأمل الأخير
ما زلت يا غيمة حرة
تعطين ضباب وحدتنا
ما زلت امتدادا للعاشقين
ما زلت كما كنت
برغم رحيلك ...

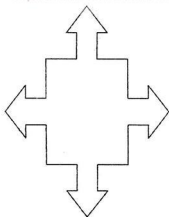
أرشيف
ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhril.com
تظهرين لحبك

زيد المدينة الغارقة
في جرحها القديم
ترمين ما تبقى
من هيكل الحب المنداعي
المسافر بعيدا
ما زلت يا (سلوى)

حاضرة في "لما نا"
في فرحنا وأسا نا
وفي ليلنا ونهارنا
في حديثنا وأخبارنا
في صمتنا وفي "دعانا"
ما زلت يا (سلوى)
في سروح قصائدنا

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>



احتمالات للموت الآتي

شعر : محجوبة الجلاصي

لم تجرب مثلي الموت

عديد المرات

لم تجرب مثلي الرحيل

في المناهات

ولم تجر حرك الورد مثلي

لم تقطعك الوجوه

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

ولم تحنك الليالي مثلي

يا وجعي الممذ

في جسدي ...

دعني أسترع قليلا

على حافة الحلم

علني أجدني

أو أجد بعضي المنسلق

منعته أنا يا الغائب
الحاضر بين ثنايا ذاكرتي
فاتركني أستريح قليلا
وأستريح حكايات
جلدتي وعصيت أبي :
البشر ذئاب
والسقوط عامر
والفرار مذلة
فلماذا دائما تعشقين
الظلام ..
ولماذا كلما فاجئك
الانكسار ...
يتلحفك الضمت
وتحتمين وراء السواد
عفوا يا الذي طارد فرحي
ألم أشرح لك حزني ؟

ألم أمتحك الكثير من صبري ؟

ألم أقل لك هو ما تبقى

من فرحتي ؟

ألم .. ألم

فهم أنك تكره

ألمي ...

فلماذا تحجب الشمس

عني ؟

وتسرق القمر مني ؟

فدعني أعشق المطر

على مهل ...

وأستريح بأسر حبيبي

على مهل ...

وأمرق موعلا

مع الموت على عجل

البسطاء

شعر : شعثان شيخ

" لن أتوج بقائي في لحظات اليقين بالعزلة الفداء، بل سأتمدد في صفاء الأزمنة
التي صفعها التجني وأهدرها سكن الروح وجلاء الحقيقة "

وجه الحقيقة مشيع

كالضباب

وملأ أرج فكهم

موصلة على ضفة المنحى

شأنيهم تطلق الرجف

تحوي الاعتداد

وهم يكتبون ظفائرهم

في خيوط الشفق

دناهم مخققة

والنجلي .. انتشار

مخاصرة فلك في الأفق

اخترت النار في دهم

سكنات موجهة

أخذها ماء حيرهم

حينما أشعلوه

بفيض النرق

*** **

السطا. فنوا

ARCHIVE

<http://ArchiBeta.Sakhril.com>

يبدروا قيام الفرح

وانعنا قاهم في مغاني الحصار

مرغيف وشوك

إذا امتد في لحظتي أن اقامر

أسفارهم

واعيد انشاء العيون إلى ساعة

من مظان الحقيقة

لجمعت صحو القمر
وغصون الشجر
وقفا صيل أجرة تطاير
في نظرات صبي
وأصوات مثذنة مرددات الدمع
وأحجار زاوية لم تمت
وابنعت عمارب في ساعة تنوح
مثل كعب إلى عنق
وتولد مثل الظلام الذي سيجنه

دمى الأهيار

*** **

أقرأ الآن كما عجم الخرائط

أتوجس من شطط اللون

فالبسطاء الذين

يلدخرون عقائد هم في فلق المسحيل

أهيدروا مشيع البقا.
واعنصروا مقل الشعر
في أكواب الصوف
همر يلدون توارمهم
في اهتلاك المدارس
يشرعون في أول الحزن
لا غنملون الغياب الذي

ينوسطهم هو الرقعة
ARCHIVE
<http://Archivage.Sakhril.com>
فجمادى القمر

لحفل بالامعان بمدارات

*** ترؤها كالوجه

المنصب نذبات في وجه

حائل

كانت سكبته

ضعيفته عالمهم

قصة قصيرة :

"عودة الياسمين"

بقلم : آمال يعقوبي

حين قررت سيمون الزواج من سمير المهاجر العربي الذي يواصل دراساته العليا في الهندسة... كانت تعلم أنها تتحدّى رأي أسرتها التي ترفض مبدأ هذا الارتباط... لما له من انعكاسات سلبية على حياتها... وأنها بهذا التحدي ستخوض مغامرة مجهولة العواقب...

كانت تعشق سحر الشرق منذ طفولتها... ولطالما انبهرت بأفانصيص ألف ليلة وليلة... وكان هذا دافعا لأن تنجذب لا شعوريا نحو سمير الذي وجدت فيه الصفات التي كانت تحلم بها...
<http://Archivebeta.Sakhril.com>
 وبما أنها إنسانة عاطفية... فقد لبّت نداء قلبها وتغافلت عن حكمة العقل...

ولشدة تعلقها بسمير كانت لا ترى الكون إلا من خلال عيونه... وكانت عيون الحب تجمل الأشياء فتجعلها وردية حالمة... صارحها بنيتها في الرجوع إلى وطنه والاستقرار مع أهله... وطلب منها الزواج والعيش معه هناك... فوافقت بسرعة... لقد طار بها جنون الحب إلى أجواء بعيدة من الحلم... فأفتتن قلبها وعميت بصيرتها...
 ولقد أثار قرارها المتسرع غضب أمها: قالت لها في محاولة يائسة لاثباتها عن رأيها...

-ثمّهلي يا ابنتي قبل اتخاذ القرار الخطير... فالزواج من أجنبي لن يكون
محطة عابرة في حياتك... ستألمين كثيرا.. وستصطدمين بعقبات
كثيرة ...

أجانبها سيمون بعيون حاملة :

- ولكن الحبّ يا ماما يصنع المعجزات... !

- تنظرين يا ابنتي للحياة برومانسية شديدة ...

- وهذا ما يخيفني بالذات ...

- ولما التشاؤم... وسمير شاب طيب... يحبّني بصدق... وأهله يباركون
علاقتنا ...

- وأنت تبالغين في الثقة بمولاء العرب... إنهم يختلفون عنا في التفكير،
عاداتهم وطريقة عيشهم مغايرة لنا... فكيف مستمكين من التأقلم مع
مجتمعهم ...؟
<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

وتستطرد بعد تفكير عميق :

- هذا صعب يا ابنتي وخيف بالنسبة لحالتك... أنت رقيقة المشاعر
وعاطفية... يغلب عليك التأثر ومن السهل وقوعك في شرك العواطف
الوهمية ...

رجتها سيمون بأمل :

- ادعي لي يا ماما بالنجاح ...

قالت الأم بلهجة فيها حنو: فلتصحبك بركة السيد المسيح ...

بقيت تلك الكلمات عالقة بذهنها وصداها يرنّ باستمرار...

وأصبحت تلك التخمينات المسيقة مبعثا للندم والحسرة في نفس

سيمون عندما أفاقت. من وهم الحب... وبعد أن شربت من كؤوس
العسل... ذاقنا مرارة العلقم بعد الزواج ...

تحول سيمر بعد عودته إلى أرض الوطن إلى شخص آخر ...
لقد لاحظت عليه هذا التحول المفاجئ ... لم يعد الشخص الأول الذي
أحبته في وطنها ... ذلك الشاب المتحرر المتفتح على العصرنة ... الذي
شاركها أندية اللهو وحلبة الرقص ... لم تعد تسمع منه غير "هذا عيب
أو هذا حرام عندنا ..."

"لا تلبسي هذا الفستان القصير أمام أهلي ..."
أصببت بخيبة أمل شديدة ... جرحت في كبرياتها وأنوثتها
... كانت تأمل أن يكون حنوناً متعاطفاً معها ...

تذكر كيف أنها سألته في ساعة صفاء حاولت فيها التقرب منه :

لماذا تغيرت معي يا سيمون؟ <http://Archivebeta.org>

لم أعهدك من قبل متسلطاً تقليدياً ... ماذا أصابك ... ؟
- لازلت نفس الشخص الذي عرفته ... ولكن الظروف هي التي
تغيرت، فنحن اليوم نعيش سوياً مع أهلي ... وهم أناس محافظون
يحترمون التقاليد والعادات العربية الإسلامية ... ومن الضروري التكيف
مع نمط العيش هنا ...

- ولكن لم تكن هكذا عهدك من قبل ... أين الأحلام الجميلة التي
تصورناها معا ... ؟

- اصبري يا سيمون ... وتحلمي معي حتى نصل إلى برّ الأمان ...

- تقصد الوصول إلى إتمام البيت الذي شرعت في بنائه ... ؟

- بالفعل... حينَ تمكّن من الاستقلال عن العائلة... سأوفيك بالعهود الجميلة ...

اقتنعت سيمون بمرور الأيام... أن الأمانى والعهود لم تكن غير مما طلات معسولة اختلقها لتبرير تغييره

إحساسها بالاغتراب كان مريرا... كانت تشارك أهل زوجها الجلسات المسائية وهي واجمة ... أحيانا يأخذها الخيال وتعاودها ذكريات الوطن...

قال لها مرة أبو سمير الشيخ الطيّب الحاج أحمد بمودة :

- شاركيّنا يا ابنتي الحديث... نأخذ ونعطي في الكلام ...
ردّت سيمون بكلمات تونسية متعثرة:

- ولكيّني يا عمّي لا أجد العربية...

- لا بأس يا ستامية (وهو الاسم الذي أطلقه عليها) تتعلمينها بالتدريب...

أحبّت سيمون بالفعل تعلّم اللهجة التونسية... لأنها كانت تحسّ بالضيق والاختناق كلّما اجتمعت بصديقات العائلة وهنّ يحطنها بنظرات متفحّصة... أحيانا كنّ يغمغن بالكلام... ونظرأهنّ فيها ابتسام ساخر ...

كانت تشكّ في انتقادهنّ لها ...

أحيانا تحدّثها نفسها بتصورات شتى... لعلّ ابنة خال زوجها الفتاة ذات الجمال الأسمر والتي تزورهم من حين لآخر لازالت تفكّر فيه ...
لقد أخبرها سمير من قبل أنّ والدته كانت تنوي خطبتها له ...

ولكن هو ... اختار نصيبه ...

هذه الفتاة لا تفوقها جمالا ولكنها أكثر جاذبية ...

كان إحساسها الفظيع بالغربة ينمي داخلها تصوّرات فيها الشكّ من تصرفات المحيطين بها ... لقد افتقدت الشعور بالأمان ...

أحاطتها أسرة سمر بكلّ الحبّ والمعاملة الطيبة ... ولكن هل هذا يكفي لتكون سعيدة ...؟

كانت تفتقد السعادة لأنها كانت تأمل أن يحيطها سمر برعاية أفضل وحنان أكبر ...

ولكن...! ويا لخبية أملها عاملها ببرود ولا مبالاة ... تساءلت مرّات عديدة بينها وبين نفسها ... هل يمكن للانسان أن يتبدّل بين عشية وضحاها ... بعد تغيير ظروفه البيئية أو الاجتماعية

هل تنقلب جميع موازينه بمجرد عودته لجدّوره وأصله ...؟

احترمت فيه تعلّقه بوطنه ... خصوصاً حين يضع الجبة التونسية الأصيلة صيفاً ويجلس في فناء الدار العربي يدخن النارجية - الشيشة -

كانت تلاحظ أمارات السعادة والانتشاء على محياه ...

ولكن ... كانت تتساءل بمرارة ... هل تنسيه الأصالة ... حتّى أكلات زوجته التي كانت محبّبة إلى نفسه ...؟

أصبح يجذّ ما تطبخه أمّه الحاجة "فاطمة" وخاصّة أكلة الكسكسي التونسي بالسمك ...

سألته مرّة والغيرة تعصر قلبها ...

- ألم تعد تشّاق لطبخي يا سمر ...؟

وكانت اجابته فيها برود ...

- لقد مللت الأكلات الجاهزة والتي تفتقد البهارات ...

وكأنه أحسنّ بندم فاستطرد :

- حبذا لو تتعلمين ياسيمون الطبخ التونسي ...

صمتت سيمون ... كانت تتألم من الداخل ... لم تكن تملك الجرأة

لتثور ... وبدأ صراع مرير يحدث بين الزوجين ... وازداد حدّه على إثر

ولادة الطفلة الجميلة ... حيث اختلف الزوجان على اختيار اسم لها ...

أحب سمير أن يسميها على اسم جدّته المتوفاة والتي كانت عزيزة

على قلبه ... "رقية" والذي وجدته سيمون ثقيلًا على النطق بلهجتها

الفرنسية، أحبّت أن يكون الاسم عصريًا وفيه تواصل بين الثقافة العربية

والأوروبية مثل "سارا" أو "سمونيا" ...

واشتد الخلاف بينهما إلى أن تدخل الحاج "أحمد" بالحسنى بين

الطرفين محاولًا إيجاد حلّ يرضي الزوجين ... كان الحاج "أحمد" مولعا

بزهر الياسمين التي تفنّن في غراسة أغصانها والعناية بها ...

وكان سريع البديهة فخطرت له الفكرة وبادر لعرض حله :

- ما رأيك يا سامية أن تسمّي طفلتك الحلوة "ياسمين" إنه اسم رائع

وعصري ... أليس كذلك؟

ابتسمت سيمون ... وبرقت عيناها إذ أعجبها الاسم ووجد هوى في

نفسها ...

- بالفعل يا عمّي ... فيه رنين رائع ... !

قال سمير بتهكم :

- تقصدين فيه رنين غربي ...

فتدخل الحاج أحمد بوذ :

- ليكن رنينه أرو عربي ...

وكان شيخا على قسط من الاطلاع والثقافة فواصل :

- نرجو من الله أن تكون ياسمين في روعة هذا الزهر تجمع بين الجمال الغربي وسحر الشرق ...

وسميت الطفلة الجديدة بالياسمين ... كانت بشرتها في لون هذا الزهر الجميل ... أما ملامحها فخليط متناغم بين شقرة والدها وسمرة والدها ... وأحبها الجميع ... إذ أشاعت جواً من الفرح والبشر داخل الأسرة ... وتعلق بها سمر وأعطاهما الكثير من وقته واهتمامه ...

أما سيمون فقد ملأت عليها ياسمين حياتها ... ووجدت فيها خير أنيس في غربتها ... خصوصاً وحالة الجفاء والتباعد قد تواصلت بين الزوجين ...

أما الخلافات بينهما فأصبحت منصبّة حول طريقة تربية ياسمين في المستقبل ... سيمون تفضّل التربية المتطورة العصرية المبنية على قواعد علم النفس الحديث وإدخالها المدارس الخاصة المرتكزة على تعليم الفرنسية ...

وسمر يحبّذ تعليمها العادات العربية الإسلامية منذ الصغر ... والتركيز على لغة الضاد ...

وغاب الحبّ عن حياة الزوجين ولم تبق غير ظلاله الباهتة ... أصبح يحتلق المشاكل لأنفه الأسباب وكأنه يريد استفزاز زوجته الأجنبية

ووجد الثغرة في تشبُّها بديانتها المسيحية ...
 أحب سمر بعد الزواج أن تعتنق زوجته الاسلام ... وحاول بشتى
 الطرق إغرائها حتى تغيّر ديانتها ... إلا لها أبت ...
 وأمسى هذا الرفض ... باعثا لمزيد من التنافر بينهما ... لاحظت
 مدى التحول الذي يطراً عليه خلال شهر رمضان ... إذ يلتزم بواجباته
 الدينية من صوم وصلاة ...

كانت تحسّ بالمعاناة وهو يرمقها بنظرات نارية تعبّر عن الازدراء حين
 يفاجئها تفطر خلال الشهر المعظم ...
 ما ذنبها ... أن كانت مسيحية ... وقد قبلها من قبل على ديانتها ولم
 يشترط عليها تغييرها ...

أصبحت سيمون تحسّ بعقدة الذنب كلما فاجأها سمر تلتهم بعض
 الأكل ... وكأنها تقتطف جريمة ...
 انتقدها مرة ...

- ألا تخجلين ... الناس صيام وأنت تأكلين ... ألا تحترمين غيرك ؟

- ليس من المفروض عليّ الصيام ... لاني مسيحية ...
 ردّ عليها سمر بحدة :

- بل أنت كافرة ...

لم تتمالك نفسها هذه المرة ... فثارت كالبركان ... لم تعد تحتمل إهاناته
 المتكررة ...

- وأنت منافق ... تدعي التقوى والمحافظة في وطنك ... وتتحول
 إلى عابث مستهتر في المهرجر ... انفعلي بشدة ... ولم يتمالك

نفسه... وهوى عليها يصنعها بقوة...

بكت بحرقة حتى خنقتها العبرات... وتقطّنت العائلة للزراع...

عاب الحاج أحمد ابنه قائلا:

- ليس من المعقول يا سمير إجبار زوجتك على تغيير دينها...

- إنما لا تحترم عاداتنا وتقاليدنا...

- الإسلام يا ابني دين الرحمة والتسامح وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى أن

نحترم أهل الكتاب وألاً نصيّق عليهم للدخول في الإسلام...

- أصبحت أجد صعوبة في التعامل معها لأنها متشبّثة بثقافتها...

- هي أمور بدئية... لقد نشأت في محيط ثقافي مغاير لنا تماما... ومن

الصعب عليها التكيف مع عاداتنا وتقاليدنا...

واستطرد الشيخ الطيب مخاطب ابنه :

- عاملها يا ابني بتفهمهم أولين... إنها غريبة علينا...

باتت سيمون تلك الليلة مكسورة الخاطر كاللبوة الجريحة... لقد طعنت

في كرامتها من طرف أقرب الناس إليها...

وحاول سمير مرضاتها إلا أن عقدة الزهو والسيطرة منعتاه... فكان

مترددا بين الإقدام والإحجام... كان يقاوم صراعا ذاتيا بين الندم من

قسوته على زوجته... والنقمة على عنادها...

ولم تنتظر سيمون أن يهتدي إلى الحل... بل اتخذت ليلتها قرارا لا

رجعة فيه... أن تأخذ ابتها وتغادر البلاد... ونفذت صباحا ما عزمته

عليه... فبعد خروج سمير إلى العمل... حملت ياسمين وبعض أغراضها

الضرورية وتوجهت نحو المطار...

لما عاد سمير مساء ... لم يجد زوجته وابنته ... تركت له سيمون رسالة شرحت فيها أسباب رحيلها... صدم للأمر ... لم يكن يتصور أن تهجره سيمون بماته السهولة وتأخذ أحب الناس إلى قلبه ... فلذة كبده ياسمين ... تلك الزهرة التي فاح أريجها وأشاعت البشر والسعادة بين الجميع...

بعد رحيلها أصبح البيت قفرا ... مظلما كالليل الدامس الذي غاب قمره ... سمير يسير كالتائه .. واجما ... شاردا ... لم يستوعب بعد ... ما جرى له ... اشتدت عليه آلام معدته وازدادت قروحها

فلازم الفراش لعدة أيام ... كره العمل وانسدت نفسه، وأصبح على حافة الانهيار ... أما الحاج أحمد وبقية أسرته ... فقد تأسفوا لما حدث ... أصيبوا بحزن شديد لغياب ياسمين وأُمها ... حتى أن الشيخ الطيب أهمل العناية بشجرة الياسمين فذبلت أزهارها ...

لم تندمل جراح سمير بمرور الأيام ... بل تواصلت معه حالة الاكتئاب التي لازمته ...

راحت ياسمين ولم تترك له غير عروسها يجد سلوى أحيانا في محادثتها وكأنه يخاطب حبيبته الصغيرة الغائبة ... وخافت عليه أسرته من الجنون ... وأصبح الكل ينظر إليه نظرات الخنو والإشفاق ...

كان الجميع ينتظر رحمة من السماء تعيد له السعادة المفقودة ... ولم يأس الحاج أحمد من الصلاة والدعاء ... وحدثت المعجزة ...

في إحدى الليالي ... بينما كان سمير يتأهب للنوم ... رن جرس الهاتف داخل حجرته الخاصة ... رفع السماعة ... وترقب لحظات إشارة

المكاملة... ليستمع بعد لحظات لصوت اهتز له كيانه كله... سمع ياسمين عبر الهاتف... تكلمه بلغة ابنة الثلاث سنوات... بلهجتها المحببة والتي تخلط العربية بالفرنسية ...

- بابا العزيز... لقد اشتقت إليك كثيرا... طار سمير فرحا... حتى أوشك على البكاء من شدة التأثر... واندفع يسألها عن حالها ثم بشيء من التردد سأل عن سيمون... ولم يفتأ أن سمع صوتها قالت بشيء من الاضطراب :

- لقد اشتاقت ياسمين إليك كثيرا... فلم أشأ قطع الاتصال بينكما... نسي سمير كل أحقادها ورجاها بلطف:

- أرجوك يا سيمون ألا تقطعي الاتصالات الهاتفية بيننا ...

ردت هذه المرة بلهجة جادة خالية من العواطف :

- في المستقبل ستقتصر الاتصالات بينك وبين ياسمين ...

ولم تترك له الفرصة للاسترسال... فودعته بأدب وأبلغته سلامها لأسرته وخصوصا الحاج الطيب أحمد وأهنت المكاملة ...

رجع بعض الأمل لسمير... وأحبّ إشراك عائلته لمقاسمته الفرحة بالخبر السعيد ...

- أتصدّقون أنّ سيمون اتّصلت من فرنسا... وكلمتني ياسمين بشوق كبير...

برقت عيون الجميع بالفرح وسرّوا للمفاجأة... وقال والده بلهفة :

- أطلبت منها الرجوع يا ابني؟

ردّ سمير بيأس :

- لا أظنّها تقبل العودة للعيش معي مجدداً ...
- حاول يا سمير ملايتها والتأثير عليها...إنّها والدّة ابنتك...وتصرفاتها تدلّ على أصل طيّب ووفاء كبير ...
- وأيدت والدته رأي زوجها :
- بالفعل يا ابني...هناك العديد من الأمّهات الأجنبية حيث يأخذن أولادهنّ يحرمن الآباء من رؤيتهنّ أو حتّى الاتصال بهم على مدى السنين...
- وحاول والده نصحه باعتداله المعهود:
- لقد كنت متصلياً في تعاملك مع زوجتك ...
- وسأله بفضول محبّب وكأنّه طبيب ماهر يسعى لتشخيص العلّة :
- ماهي مطالب سيمون لما كانت تعيش معك ؟
- ردّ سمير بعد تردّد واحتشام : <http://Archivebeta.Sa>
- لقد كانت مطالبها كثيرة...إنّها...إنّها تريد الاستقلال عن البيت العائلي...وأن يكون بيتها الخاصّ مؤثّثاً على الطراز الأوروبي ...
- وحثّه والده على الاسترسال :
- إيه...وماذا أيضاً ...؟
- وتريد العمل وبعث مشروع في الاختصاص الذي درسته...والأكثر جرأة أنّها تريد العيش على النمط الأوروبي والاستهتار بعاداتنا وديننا...
- ردّ الشيخ برزانة :
- مشكلتك يا سمير أنّك لم تساير زوجتك في ميولاتها...كأن تنتهج معها طريقة ديبلوماسية تخلق نوعاً من التوازن الثقافي بينكما ...

- عفوا ... لم أفهم ما تقصده يا أبي...
- كنت ترفض عاداتها وتقاليدها ... بل حتى طبخها ولغتها ...
- أحببت أن تجارنا في طريقة عيشنا وغطنا الثقافي ... فالزوجة عندنا هي التي تتبع زوجها
- ولكن يا سمير ... عملية التكيف الثقافي تأتي باللين والمران والصبر ... ثم ألان من صوته وقال :
- ما ضرك لو جارتها في الاحتفال بأعيادها الدينية ... فستحاريك في الاحتفال برمضان والمولد النبوي عندنا...
- ديننا يقر بجميع الأديان ... ويطالبنا باحترام أصحابها ...
- قال سمير :
- أتريدني يا أبي أن أتكيف مع غط عيشها الأوروبي ... وأنسلخ من عروبي وأصالي؟ <http://Archivebeta.Sakhril.com>
- قال الشيخ بشيء من الغضب :
- هل أصبح الشيوخ أكثر مرونة وتفتح من الشباب ...؟
- ثم ألان من صوته وقال :
- لم أقصد يا ابني الانسلاخ عن حضارة الأجداد ... ولكن لا بأس من الجحارة والمعاشة المرنة بين الثقافات ... إنك لو استحسنست أكلتها الأوروبية المفضلة ... وطلبت منها طبخها بكل الحب ... وقتها ستطيب نفسها لطبخ الكسكسي والملوخية ...
- ثم واصل والده حديثه بفخر :
- إننا شعب مرن ... احتكّت بنا حضارات وثقافات مختلفة ... أثرت

- إنجابيا على طباعنا وسلوكياتنا ...
- أطرق سمر يفكر ... فأحسن والده مما يختلج في صدره من
آلام ... وحاول التخفيف عنه ...
- أطو صفحة الماضي يا ابني ... وحاول إصلاح ما انقطع من حبال
الود بينك وبين زوجتك ... إن القلوب يا ابني جبلت على الإحسان ...
رد سمر بلهجة منكسرة :
- ولكنّها تريد البيت المستقل ...
- هذا من حقّها - يضحك - ... على الأقلّ تترتاح من تدخلاتي ...
ثم واصل يشجّع:
- لا تقلق بهذا الشأن ... سأعطيك ثمن الأرض التي بعثها
موجرًا ... وذلك لاستكمال بيتك الجديد ...
- ولكن يا ابني <http://Archivebeta.Sakhril.com> ...
- لا تناقشني في هذا الأمر ... سعادتك واستقرارك أهمّ عندي من
كنوز الدنيا ...
- في الأيام الموالية اتّصلت سيمون ... حتّى تسمح لابنتها من مهاتفة
والدها ... واستغلّ سمر هذه الفرص الذهبية ليطلب من زوجته بكلّ
الحبّ والرجاء أن تعود إليه ... فيطويا صفحة الماضي بجفائهما
وآلامها ... كانت في البداية متردّدة ... فلم تعطه وعدا أو جوابا
شافيا ... صارحته مرّة غير الهاتف:
- إنكم معشر العرب ... تحلمون كثيرا ... وعودكم حلوة
معسولة ... ولكنكم لا توفون بها ...

ردّ سمير بجديّة :

- أقسم لك أنني صادق فيما أقول...

- وهل قبلت مطالبي السابقة...؟

- مطالبك على الرأس والعين...وهي في طور الإنجاز...وهذا برهان على أنّ العرب ليسوا أصحاب قول فقط...

- ألم تقل من قبل أنّ الشرق والغرب لا يلتقيان...فكيف حصل التغيير...؟

- بالحبّ والتفاهم نجعل هذين القطبين لا يلتقيان...

- هل تقبل أن نجعل والدك شاهد إثبات على صدق نواياك...؟

- بل هو الذي شجّعني على الإنجاز...ويتنظر عودتك وباسمين بفارغ الصبر...

قالت سيمون بامتان لطالما أثار في إحسانه وكرمه...إنيّه رجل عظيم...
ضحك سمير وردّ :
<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

-- هذا شرف لي ...

على إثر هاته المكالمة...بدأت سيمون تلين...فوافقت بعد محاولات متكرّرة على الرجوع إلى زوجها...وكان لهذا القرار صدى إيجابيا على نفسية سمير الذي عادت إليه السعادة...بعد معاناة...

وعاد الأمل للجميع...حتّى لكانّ شجرة الياسمين أحسّت بسعادة الأسرة فشاركتها الفرحة...وانتعشت من جديد ...

لقد كان الحاجّ "أحمد" بمثابة نقطة التواصل بين ثقافتين مختلفتين وكانت مواقفه أحسن دليل على أنّ العرب أهل حوار وشجاعة في الرأي وأنّ القلوب جبلت على الإحسان والرحمة...

ممرضة

بقلم : مبروك صالح المناعي

الوقت يجري والإنسان يجري والشؤون مقبلة والساعات مدبرة والحياة متواصلة بخيرها وشرّها والصادق يقف بين بعض الأعوان أمام غرفة الطبيب ينتظرون أدوارهم.

الأعوان واجب عليهم الحضور قبل قدوم الطبيب بساعتين وقبل مجيء الممرضة بساعة.

الصادق عون منضبط يحترم الوقت إلى حدّ القداسة كما يحترم الناس ويولي أهمية بالغة للمواعيد، منذ أيام قدم إلى المستوصف لتسجيل موعد لعيادة طبيب العيون واطمأن قلبه لما قرأ اسمه ولقبه بقائمة اليوم الموعد لدى عون الاستقبال.

لبث الأعوان ينتظرون محاولين تخضية الوقت بالحديث في شؤون مختلفة ومنهم من يقرأ صحيفة أو مجلة بينما ظلّ الصادق واقفا يفكّر: "ما أمرّ الانتظار خاصّة بالنسبة للمريض فإنّه يعيش اللحظات على أعصابه... البارحة لم أتم هائنا بسبب هذا الموعد ثمّ استيقظت مبكراً لأحلق ذقني وأهيم نفسي لأحضر بين الناس في مظهر لائق... كذلك فكرت في مشكلة الثقل بتخصيص أكثر من ساعة للتنقل من الأحواز إلى العاصمة... ها إني أعاني من الانتظار وأتابع المناداة من قبل الممرضة وهي تتكلّم في همس وأراها في جيئة وذهاب تنتقل بصعوبة نظراً

لبدانتها المفرطة، وبدت هادئة رصينة وحسنة تحمل نظارة طبية زادتها

جمالا. توسمت فيها خيرا فسألتها:

-من فضلك... هل قرب دوري؟

فزجرت:

-لماذا تسأل؟... عليك بالانتظار فسيأتي دورك! صدمتك بمعاملتها

فليث تنتظر وتركّز سمعك على المناداة إلى أن انتهت دون مناداتك.

خاطبتها بلين وبهمس:

-سيدتي... إنك لم تناديني!

-ما اسمك؟

-الصادق بن طاهر.

-اسمك غير موجود في القائمة!

-سيدتي أؤكد لك أنني سجلت اسمي ورأيتته بنفسني بالقائمة.

صرخت الممرضة في وجه الصادق:

-مالك لا تفهم... قلت لك إن اسمك غير موجود بالقائمة... أنا لا

بهمني شيء... ما عليك إلا أن تعود في المناسبة القادمة.

فصاح الصادق وطلق بصرخ:

-مالك تكلميني هكذا بالصراخ... إنني أستطيع أن أصبح أكثر

منك... أنا أحترمك وأكلمك بالهمس وأنت تصيحين... هل يليق بامرأة

أن تصرخ خاصة إذا كانت ممرضة... أنت ممرضة حقيقية... لقد مرضتني

بمعاملتك وبصراخك.

وتجهمر المرضى بالبهو وكثر اللفظ وعبر بعض المرضى على أن المعاملات بالمستوصف سيئة وحضر المكلف بالاستقبال فأكد أن الصادق مسجل بقائمة اليوم.

وسكت الجميع عندما أطل الطبيب فنادى الصادق:

- لا بأس... لا بأس... تعال أفحصك... وخاطب الممرضة راجيا :
- أضيفي اسمه بالقائمة.

وجلس العون أمام آلة الطبيب ففحصه ثم قال:

-إليك بدوائين، قطرات ومرهما، استعملهما والتحق بشغلك.

-لا أستطيع يا دكتور لأنني أعمل بعيني...إني رسام بالمؤسسة.
فانفجرت الممرضة:

-إنه لا يأتينا دائما إلا ليليل الرخص يا دكتور!

فانفجر العون : <http://Archivebeta.Sakhril.com>

-أ رأيت يا دكتور...أليست هي التي حذفت اسمي من القائمة...

هكذا هي ضدي دائما...هذه الممرضة مرضتني يا دكتور.

فعقب الطبيب:

- لا بأس... لا بأس...أنتما زميلان بالمؤسسة...هذا لا يليق...

سأمنحك يومين راحة ومع الدواء إن شاء الله ستكون بخير.

فخرج العون وهو يقول:

-شكرا لك يا دكتور وأنت ربي يهديك.

لما خرج الصادق من باب المستوصف وجد زميلا شابا أصيل موطنه

فحياه ثم قال:

-كأنك لم تعرف تلك الممرضة...إنها من موطننا...لما كنت أنت تدرس بالتعليم الثانوي كانت هي تدرس معي بالتعليم الابتدائي.

-ابنة من هي؟

-ذلك هو الإشكال...عقدتها ابنة من الحاج العابد، الفلاح الكبير بموطننا، كان والدها خماسا عنده، قدم منذ عهد بعيد من جهة أخرى. فعقب الصادق معلقاً:

-هل تصلح هذه المرأة للعمل في مجال الصحة؟...هل درست المعالجة؟...لا أعتقد...كيف ستفعل هذه أعوان مؤسستنا الذين يعيشون على أعصابهم؟ إنها لن تستطيع أن تعالج المرضى بل بالعكس ستمرّض المرهقين من عملتنا!...

http://Archivebeta.Sakhrit.com

-لو تعلم يا سي الصادق أنني خضت مع بعض المثقفين في موضوع هذه التسمية...لماذا نسمي المعالج ممرضا؟...أما ابنة قريتنا فينطبق عليها اسم ممرضة...إنها ممرضة بأتم معنى الكلمة لأنها لا تعالج المرضى بل تمرّض السليم.

فختم الصادق اللقاء داعياً:

-رّبي يهديها!...

خرجت الممرضة من المستوصف ومّرت بهما فوجّهت ملاحظتها إلى ذلك الشاب مخاطبة الصادق :

-أعطيه...أعطيه زوز دورو!...

سراب المسرح

بمجلّة "أمواج"

متابعة : ديداني أرزقي

الجزائر

صدر العدد الثاني من مجلّة "أمواج" والتي تصدرها الإذاعة الوطنية الجزائرية وذلك بمبادرة المدير العام الشاعر عز الدين ميهوبي والذي شغل قبل ذلك رئاسة اتحاد الكتاب الجزائريين.. وهو مثقف ينتمي لما يطلق عليهم بالمشقف العضوي.. فلا يكفي بإبداع الشعر بل هو تجده يساهم بفاعلية في بعث وحلق الديناميكية الثقافية حيث يتفاعل المبدع والفاعلية العامة للثقافة.

<http://Archivebeta.Sakhrif.com>

المجلّة بإدارة صلاح الدين الأخضر.. وفي عددها الثاني مارس 2007م احتوت على تغطية لنشاطات الإذاعة والإذاعات الجهوية عبر الجزائر الشاسعة. وجاء على الأخص المقال المكرس للإذاعة الثقافية في عيد ميلادها الثاني عشر وهي مسيرة حافلة في خدمة الثقافة وإظهار المشهد الثقافي الجزائري.

ومن أبرز ما تعرضت له المجلة القيمة سراب المسرح افيون السينما وهي تؤثر لمسيرة فنان عظيم هو سيد علي كويرات. ذلك الممثل الذي يقوم بأدواره وكأنه يعيش الحياة. مسيرة حافلة بالإبداع بالجزائر وخارج الجزائر.. ممثل يمزج الذاتي بالموضوعي. من عوالم يوسف

شاهين على عوالم ميلود معمري الروائية في الافيون والعصا وما أبدعته الثورة التحريرية. وما جسده السينما الثورية من مآثر.

ومثل هذه المجالات فائدتها تكون عامة وليست محددة. فهي مجلة إعلامية كما أرادها الأستاذ عز الدين ميهوبي وهي مجلة تقدم مادة يحتاجها المثقف والمتلقي عموما الإذاعية ولن تكون مادة إلا إذا كانت مادة مثقفة وذات أبعاد ليست ترفيهية فقط وإعلامية بل ثقافية تهذب الذوق وتربي ذائقة أصيلة لمجتمع هو في أمس الحاجة لذلك.

مجلة في انطلاقتها جيدة وتؤسس لمعلم ثقافي إعلامي يجعل المتلقي ينخرط في المشهد الثقافي أي الارتقاء به على مستوى يؤهله كي يكون فاعلا ونشطا وعلى وعي جيد بما يدور حوله بالوطن الجزائري. الذي كابد شعبه استعمارا استيطانيا وكابد سنوات قاسية بعد ذلك .. وهو الآن يرى النور الذي يؤمنس لطريق النور هو الوعي الذي تخلقه الثقافة.

إن تاريخ تطوّر البشرية حتى يومنا الراهن صنعتها العقول المبدعة والخلاقة، هذه العقول التي سلكت دروبا مضنية وشاقة من العذابات والتحمل والمثابرة حتى وصلت إلى آفاق منيرة ومضيئة، أفسحت المجال أمام البشرية لتخطو خطواتها إلى الأمام عبر مسيرة حافلة بالعطاءات المتقدمة والمساهمة في تقدم المجتمعات البشرية وتطورها نحو الحضارة والرقى، وبالأستاد إلى ذلك لا بد لنا من فهم كنه المبدعين والعملية الإبداعية عبر تناول العوامل المؤدية إلى الإبداع وبنفس الوقت العوامل المعرّقة له، سنتناول في هذا البحث دور المؤثرات التربوية والاجتماعية في الإبداع وتنميته.